

#29
الهيئة العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
٤
محمد عفيفي مطر
أوائل زيارات الدهشة
9.10.2018
هوامش التكوين
سيرة ذاتية

أوائل زيارات الدهشة

هوامش التكوين

سيرة ذاتية

محمد عفيفي مطر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٦

أوائل زيارات الدهشة

هوامش التكوين

سيرة ذاتية

- الكتاب : أوائل زيارات الدهشة.
- الشاعر : محمد عفيفى مطر.

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٣٢ / ٢٠٠٦

I.S.B.N. 977 - 419 - 040 - 8

- طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الغلاف والإشراف الفنى : صبرى عبد الواحد.

سلسلة الجوائز

سلسلة تعنى بتقديم مؤلفات الكُتاب الحائزين على جوائز دولية أو عربية أو مصرية أو محلية فى دولهم.

والهدف من هذه السلسلة هو أن نقدم للقارئ الأعمال الأدبية التى حصلت على جوائز عالمية أو محلية، أو حصل أصحابها على هذه الجوائز عن مجمل إنتاجهم وذلك بغرض الاطلاع على أحدث الاتجاهات فى الكتابة الأدبية ذات القيمة الكبيرة. وتتنوع السلسلة من جائزة نوبل إلى الجوائز العربية المختلفة إلى جوائز الدولة، مبارك، والتقديرية، والتفوق، والتشجيعية.

وتضم المجموعة الأولى من هذه السلسلة والتى حصلت الهيئة المصرية العامة للكتاب على حقوق طبعها طبقًا للقانون :

- موال البيات والنوم للكاتب «خيرى شلبى» الحائز على جائزة الدولة التقديرية.
- أوقات رائعة للكاتبة النمساوية «الفريدا يلنيك» الحائزة على جائزة نوبل.
- قبلة الحياة للكاتب «فؤاد قنديل» الحائز على جائزة الدولة للتفوق.
- ملكة الصمت للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» والكتاب حائز على جائزة ميديسيس الفرنسية.
- أوائل زيارات الدهشة للشاعر «محمد عفيفى مطر» الحائز على جائزة سلطان العويس الإماراتية.
- فتاة من شارتر للكاتب الفرنسى «بيير بيچى» والكتاب حائز على جائزة انتر الفرنسية.
- اللمس للكاتبة السعودية «ملحة عبد الله» الحائزة على جائزة «أبها» السعودية.
- الآخر مثلى للكاتب البرتغالى «ساراماجو» الحائز على جائزة نوبل.
- عاشوا فى حياتى للكاتب «أنيس منصور» الحائز على جائزة مبارك.
- رجل بطىء للكاتب «ج.م. كويتزى» من جنوب افريقيا الحائز علي جائزة نوبل
- نوة الكرم للكاتبة «نجوى شعبان» والرواية حائزة على جائزة الدولة التشجيعية.

● ليلة الحنة للكاتبة «فتحية العسال» الحائزة على جائزة الدولة للتفوق.

والكتاب الذى نقدمه الآن، هو«أوائل زيارات الدهشة»، من أدب السيرة الذاتية، لشاعر من رواد الشعر الحديث. والجائزة هى «جائزة العويس»، وقد أنشأ هذه الجائزة الشاعر الإماراتى «سلطان بن على العويس» عام ١٩٨٧، وبدأت مؤسسة العويس فى منح جوائزها الثقافية بمعدل مائة ألف دولار لكل حقل من الحقول التالية: الشعر/ القصة/ الرواية/ المسرحية/ الدراسات والنقد، وهى تمنح كل عامين لخمسة من الأدباء والمفكرين أو أكثر عن مجمل إنتاجهم .

وتعتبر جائزة العويس من أكبر الجوائز الأدبية فى العالم العربى من حيث قيمتها المالية والأدبية والفكرية وهى جائزة لتكريم الأدباء والمبدعين العرب والمفكرين والعلماء. وقد حصل عليها الشاعر «محمد عفيفى مطر» عام ١٩٩٩ عن مجمل أعماله.

د.ناصرالأنصارى

إلى جليلة الجليلات

« سيدة أحمد أبو عمار »

فيض البركة فى الزمن الصعب ،

ويسالة الحنان الكريم فى عصف الشظف.

أمــى..

كان قلبى معلقًا بين مخالب طائر جارح
محموم بالسياحات فى الأعالى، علوُّه فزعٌ
ورعب، وانطلاقاته كارثةُ احتمالات،
ومناوشاته لعبٌ فوضوى بين الأمل والموت،
وكلما حط ليستريح نفَّرته الدهشة
بزياراتها المباغتة، وانفتحت مسالكُ الأفق
أمام المعرفة المرة والغربة الفسيحة.

١ ـ أمومة الترتيل

حينما كانت أمى تستعيد الاستماع إلى ما حفظت من قصار السور صعودًا إلى السور الطويلة، ومن جزء عم إلى جزء تبارك، وتصحح بصوتها الرخيم ووجهها المضئ بالفرح وعينيها المسبلتين المتبتلتين ما أخطئ فيه، كان الإيقاع الجليل بصفائه يشمل كل شىء ، وكانت الدنيا تنتظم كأنها مسبحة أخاذة من الأصوات والانسجام المحكم.

وفى صبيحة الذهاب إلى الكُتَّاب أول مرة، كانت سحابةٌ من الإيقاعات المتشابكة قد انعقدت من بعيد فوق بيت «سيدنا» يزداد علوها وتشابكها كلما اقتربت خطاى، كان «الكُتَّاب» غرفة واسعة فى بيت «سيدنا»، حين أخذت مكانى على الحصيرة بين جماعة المبتدئين، انتبهت مفزوعًا مرتعبًا على صوت «سيدنا»، وهو يعنِّف امرأته وابنته الشابة وهما وراء الباب، ثم علا صوته الأجشُّ الغليظ بآيات قصار السور،

فقلت لنفسى:

لابد أن القرآن امرأة، وأن الآيات أمومة خالصة لا يعرفها الرجال، واكتشفت أن كل ما حفظته من قبل قد سقط من ذاكرتى.. فبكيت.

٢ ـ بيت جدى

ريح تعبر متباطئة ومندفعة، فترفرف أوراق البوص بصوت مسموع كتصفيق طفل أو فرفرة مغزل، وتلتف كثافته بقتامة ظلام تسرح فيه أخيلة الثعالب والثعابين والفئران، ومن ورائه تمتد الحقول المضيئة بالخضرة والشمس، وجدى فى وسط الدار يقتعد فروة بيضاء من خراف الضحية، بيده ذيل حصان أشقر يطوح به ذات اليمين وذات الشمال، قصير القامة يجلس كالوتد، ومن بين أسنانه المفلجة يخرج حرف السين بصفير مرتو مرح.

حكاياته كانت عن الأحياء والراحلين وهم يدخلون ويخرجون بين احتفالات العرس وزفرات الدمع، من هذه الأبواب المعفرة بالتراب والدخان خرجت جدتى من باب الولادة إلى حسرة الغياب فلم ترها أمى وإن ظلت تحلم بها حتى استجابت لندائها الأخير.

من كل حكاياته لم أستطع نسيان الصبية «تتر» التى كانت إذا ضحكت أطلت من ثناياها الشمس وإذا بكت نزل المطر، وإذا ابتسمت أضاء فى اكتماله وجه القمر.

أغرانى أبى ذات يوم أن أقف بعيدًا عن عتبة الدار وأن أصيح بصوت منغوم:

«أبو عمار

خرب الدار

عشان مسمار»

انفجر جدى بالغضب، وخرج يطاردنى فهربت إلى أبى الذى أخذ يضحك مقهقهًا.

يرف ذيل الحصان فى يد جدى وتتساقط الكلمات المبعثرة فى ثرثرته التى لا يكف عنها، فأنا لم أره صامتًا أبدًا، فألتقط خيوط حكاية غامضة عن عشقه العاصف لامرأة تزوجها بعد أن صار له من الأبناء والأحفاد عدد كبير، فأحرق فى عشقه كل ما كان يملك إلا البقايا القليلة.

كبرتُ بضعة أعوام فأدركت تلميحات أبى عن المسمار، وعرفت تأويل الكناية المشاكسة التى ألهبت جدى بالغضب، فكنت أمازح أمى وأعابثها بقولى: يا بنت أبو شفيقة وزكية، زوجتيه اللتين كنت أراهما إذا زرت جدى وقد جلستا حوله، وبيد كل منهما سيجارته المشتعلة، فكانت أمى تنهرنى بغضب أمومى

طرى، وتكرر على مسامعى قولها: «الولد مولود، والأخ موجود، والأب مفقود..» إشارة إلى أن أباها أعز عندها من الابن والأخ.

وما دخلت بيت جدى أو مررت به بعد موته إلا رأيت وجه «تتر» الجميل يلوح من وراء غبشة التراب والدخان وينفث سحره الغامض فى بقايا الخراب..

٣ ـ الولاء الأول

للقرابة البعيدة بيننا خيط رقيق يربطنى به زهوًا وكبرياء اقتدار، ويربطه بى حنان وهيمنة كبير العائلة.

كنت أحوم حوله مقتربًا فى خشية من بوادر غضبه أو نوبات اختلال عقله الخرف، أتأمل جسده القوى المنسوج من العضلات النافرة، وأراقب أصابعه الطويلة الغليظة المفتولة وقد تكومت فوق مفاصلها عقد خشنة ذات أخاديد وحراشف، وهو يطوى بيديه أعواد الحديد وقطع الصلب ويفرك أحجار البازلت ويحطم الزجاج والنقود بين أصابعه، ويراهن الناس على أعمال الفتوة الصعبة، من التهام كميات هائلة من الطعام أو رفع الأثقال أو زحزحة الأقدام أو إنقاذ ما يسقط فى آبار السواقى من ثيران وإبل.

حين مرت به زوجه الهزيلة المتهافتة التى تمشى بصعوبة وقد أثقلها المرض، ونادته بصوتها المشروخ

الواهن، أسرع إليها وقد أشرقت عيناه إشراقة الطفولة والفرح، وسار خلفها ذلولاً هادئًا مطأطىء الرأس، قلت لنفسى: مهما تكن قوتك وقدرتك فى قابل أيامك ومستقبل رجولتك، فلا تلق بقيادك ولا تطأطئ بولائك إلا لأشد الأشياء هشاشة وضعفًا:

حشرة طنانة، أو طحالب بركة، أو بيضة طائر، أو رائحة عرق، أو دمعة مقهور.

٤ ـ ثلج الجيم المعطّشة

كنت كالبرعم المقطوع من شجرته، أقعد أمام دكان الكوّاء بعد الفجر بقليل، مستدفئًا بجمرات الفحم المتوهجة فى قلب مكواة القدم الكبيرة وصندوقها الصلب.. أمد يدى وأسارع بحمل الوهج الدافئ إلى أطراف أذنى المثلوجتين، وأقدامٌ قليلة ـ حافية ومنتعلة ـ قد تركت آثارها عل سجادات نشارة الخشب أمام الدكان، بعد تسخين ما وضعته أمى من الخبز فى حقيبتى القماش، فى السابعة والنصف تمامًا، يسحب الكواء مجمرته المتوهجة إلى داخل الدكان، مرسلة عبر الزجاج الشفاف ذهبًا متكسرًا وفضة سائلة، فأعدو على إيقاعات جرس المدرسة القريبة.

حينما نظر إلىّ ولد طويل أزرق العينين أشقر، وأخذ يسخر من تعطيشى لحرف «الجيم» ومن رثاثتى الريفية، تقبّضت يد من الثلج حول جسدى، واتسعت خروق ملابسى المهترئة لأصابع الهواء المثلج.

٥ ـ الشاعر

كنت أسمعهم يطلقون فى براح الغيطان غناءهم الشجى بما حفظوه من كلام الشاعر، فتمتلئ الأجواء بالخيل وصليل السيوف، ويأخذ الصحو المشرق فى الضحى زينته من المزاريق والرماح ومشاهد الحرب.

حينما رأيته أول مرة، بطوله الفارع وعمامته الرشيقة وقفطانه الذى يتصبَّب حريرًا وقصبًا وأقواس قزح، ظننته جسدًا من الموسيقى ينبع منه الكلام.

وحينما سهرت معهم حتى الفجر وهو يقص حكاية النسر الذى اختطف عقد اللؤلؤ من يد العاشق وانطلق به إلى السماء السابعة، والعاشق يركض تحت ظله، صارخًا متضرعًا إليه أن يرد عقد محبوبته، من بلد إلى بلد، وجدتنى ألهث وأتصبب عرقًا، وما رأيت طائرًا يحوم فى الهواء بعد ذلك إلا نظرت بين مخالبه، لعلِّى أرى عُقدًا ما لعاشق ما.

٦ ـ مواجهة

تبدأ رجولةُ الصبى وأمومةُ الصبيَّة فى قريتنا من سن السابعة، وعلى خشونة الفطام المبكر من اللهو واللعب الفقير تبدأ خطواتنا فى الاشتباك المجاهد مع اللقمة وكدح الذوبان فى عرق العائلة.

لم أكن قد نسيت أهوال قصص العفاريت وخوارق الجن بعد، وحينما حمَّلتنى العائلة مسئولية الوقوف على مدار الساقية لأغمز البقرة بطرف عصاى كلما توقفت، والليلة مقمرة شديدة البهاء، التفتُّ فجأة فوجدت قردًا صغيرًا يتقافز ويحدق فىَّ بعينيه البراقتين، فصرخت صرخة هلع مدوية، وحينما أسرع إلىّ أبى يستطلع ما حدث، خجلت أن أكشف له عن خوفى من مشهد القرد الصغير، قلت إن البقرة داست على قدمى بظلفها، فعاد إلى مكانه أمام الماء فى قناة الرى.

قلت لنفسى: إن أباك لم ير القرد، فأخذتُ أحدق واقتربت قليلاً قليلاً من مكمن الخطر المرعب، وحين اكتشفت أنه لم يكن سوى ظل شجرة التوت يحركه نسيم الليل، ظللت أشعر بالخجل العميق والعار السرى كلما نظرت إلى وجوه العائلة.

٧ ـ انشقاق القلب

لم أكن أعرف أن هذا الكتاب سوف يفتح علىَّ بابًا واسعًا من الصراخ والدمع يزداد اتساعًا مع الزمن.

كنت أجهل القراءة والكتابة ولم ألتحق بالكُتّاب إلا بعد ذلك بقليل، ولكنى وجدت الكتاب على رف فى بيت خالى فأخذته، قلبت أوراقه واحدة واحدة وأنا أبلل أصابعى بريقى وأعد بصوت مسموع موقع:

آدى واحد آدى اتنين آدى تلاتة.. إلخ. وبزغت تحت أصابعى صورة مفاجئة، قربتها من عينى لأرى أدق تفاصيلها.

كانت الصورة لفتاة صغيرة مهلهلة الثياب تبكى وتولول تحت نعش يحمله رجال أربعة، فشق صراخها قلبى وامتلأت عيناى بالدموع وهبت من صفحات الكتاب لوعة مترية مازلت أشمها، ومنذ ذلك الزمن البعيد وأنا ألملم الدموع من الكتب، ويتشقق صدرى لصرخات الموتى والأحياء.

٨ ـ كائنات الخوف

على ضوء مصباح من الصفيح ذى فتيلة طويلة يعبث الهواء بلهبها ودخانها، كانت أمى تصاحبنى فى الفجر إلى محطة القطار كل يوم، لأتعلم فى مدرسة المدينة القريبة.

كنا نقطع الطريق بين أشباح الشجر وهى تحدثنى حديثها الدائم عمن ماتوا تحت عجلات القطار وكيف يخرجون فى ظلام الليل ويستأنفون ما كانوا فيه من حياة؛ النساء يحملن غرائر الحب أو الطحين، والرجال يركبون دوابهم، والشباب والصبية يشاغبون ويلغطون بلهو الأحاديث، كانت تقول: إذا خفت وجريت طاردوك وآذوك أذى لاشفاء منه، وإذا قوى قلبك وقرأت آيات مما تحفظ اختفوا ورجعوا إلى مرقدهم فى ظلام الأرض وسكونها.

ضاقت الأرض وغبشة الفجر علىَّ بالعفاريت والجن وأشباح الموتى، وحين قال أبى إننى كبرت ولم

يعد يليق بى أن أحتمى بأمى، أصابنى الهلع، وغلقت أمامى سبل الهرب، قلت لنفسى: أهو موت أم أكثر؟!

وفى تحد يشبه الانتحار خرجت فى عتمة الفجر، وتعمدت أن أمر بأماكن الموتى المختبئين والأشباح «اللابدة» المتخفية ومكامن الجن والمَردة.

٩ - مشهد القيامة

عرفت الشتاء فى بلاد كثيرة، تقلبت بين أجواء وأنواء، بين عصف برد وانهمار مطر وغربلة رياح، ولكن ليلة شتائية واحدة حُفرت فى كيانى بأحداثها ورعبها ما جعلها الشاهد الشاخص والدال على كلمة الشتاء كلما وردت فى كتابة أو كلام.

كان أبى غائبًا فى سفر، وكنا - أمى وإخوتى وأنا - نلتمس الدفء متحلقين حول مجمرة الفخار المتأججة، وبدأت تصلنا أصوات الريح وقعقعة الرعد من مطاردة جمال الشتاء لجمال الصيف، والمطر يبعث من الحطب والقش فوق الدار أصوات زخاته التى أخذت تعلو وتعلو حتى بدأ المطر يقطر وينز وتتدفق خيوطه من كل مكان، وكلما تهدمت السماء بالرعد وزحفت المياه من تحت الأبواب انخلعت قلوبنا وتذكرت ما سمعته عن طوفان نوح، وأمى تحاول مكافحة الماء ونزحه بكل ما عندنا من أوانى الطبخ والعجين.. ولكن

الماء يعلو ويحيل أرض البيت ردغة تغوص فيها أقدامنا.. صرخت أمى ونظرة الرعب فى عينيها أعلى صراخًا: ولد يا عبدالله... هذا يوم القيامة.. فانفجرت ذاكرتى بصور القبور وهى تنفجر عن أجداثها، وصور الموتى وهم يجرجرون أكفانهم وهياكلهم، وصور الأحياء وهم يموتون قبل لحظة البعث، وجعلنى هول المشهد أصرخ وأشهق بالبكاء: أمى.. وهل نموت وأبى بعيد وحيد!! وكيف نقوم من الموت وهو ليس معنا!! ألا يمكن الانتظار قليلاً!!

١٠ ـ هروب القرموط

لم أكن أعرف أننى أشترك فى نسج أكذوبة ستدفع العائلة كلها ثمنها، دون فرصة واحدة للاعتراف أو إبداء الندم.

بعد يومين من بقاء الرجل الغريب معنا بوجهه الداكن وعينيه السوداوين شديدتى الالتماع والاتساع وملابسه الرثة وقوته الجسدية الظاهرة ليعمل عندنا أجيرًا لقاء طعامه وملبسه وبعض النقود، وكان كثير التلفت والصمت، ولا يترك فرصة لأحد من الأهل أو الجيران ليسأله عن أى شىء يحدد شخصيته.

قال لأبى: ـ بعد أن ذهب فى الفجر إلى الحقل وعاد ـ إنه يريد أن يصطاد السمك من الترعة البعيدة، فقد كادت تجف وامتلأت بقع الماء فيها بالسمك، وأرسل معى ابنك ليرى، فأمرنى أبى بالذهاب، وحينما وصلنا الترعة البعيدة قال لى:

ستكون معى أثناء الصيد، إن سألك والدك فقل له إن الترعة كادت تجف وأن السمك يقفز من الماء الضحل.

لم أكن أرى سمكًا، والترعة بها ماء يجعل الصيد صعبًا، ولكن فرحتى بالمشاركة فى الصيد جعلتنى أكذب وأقول لأبى ما طلب الرجل الغريب منى أن أقول.

قال الرجل الغريب: إن الصيد لا يكون وفيرًا إلا فى ظلام الليل، فأهلكنى النهار شوقًا وانتظارًا لمغامرة الصيد وأعدت أمى عشاءنا فحملناه معنا وقد أردفنى الرجل الغريب وراءه على ظهر الحمار.

قال الرجل الغريب : اجلس تحت هذه الشجرة ولا تتحرك من مكانك حتى أبحث عن أفضل مكان للصيد، فجلست أنتظر، وطال الانتظار حتى غلبنى النوم، وحين أفزعنى أبى وبعض الجيران صحوت مرتعبًا، وبحثوا فى كل مكان عن الرجل الغريب والحمار فلم يجدوا لهما أثرًا، وكان يومًا مشهودًا من أيام القرية.

١١ - دائرة الموت

لم أرها تستريح لحظة واحدة منذ تفتحت عيناى عليها، وأصبحتُ جزءًا من عالمها وعبئًا ثقيلاً مضافًا إلى أعبائها، وهى فى الحقيقة لم تكن إلا عبئا واحدًا يبطش بوجودها كله بطش جبارين لا يرحمون، هو عبء السيد الأوحد مالك الرقبة، محور الحياة والنوم واليقظة، فإذا مرضت تململ ونفخ بغضب ونفاد صبر واستعجلها أن تنهض، وهى طوال النهار والليل تسارع. لأداء ما يطلبه آمرًا ناهيًا متهجمًا بلغته المشحونة بالازدراء والتوبيخ وصيغ المبالغة والغلو فى التهكم والنقد.

لا يخلو البيت طوال النهار وجانبًا من الليل من زوابع الدخان لتسخين الماء خمس مرات فى اليوم، على نار الكانون بالحطب تحت إبريق الفخار، وكلما نام أو خرج أو عاد، حتى استقطب وجوده والتهمت عاداته وأمزجته حياة كل من فى البيت. ولقد كانت

تغفر له كل ذلك وتراه من طبائع الأمور، ولكنها لم تستطع أن تغفر له أو تعفو عن قتله لأطفالها بقسوته وعنفوان بطشه، حكت لى ذلك آلاف المرات، وكانت آخر كلماتها وهي تموت حكمًا بقتل من نوع فريد.. أو عدلاً وقصاصًا تأخر بهما الزمن..

كان لزوجها ابن من امرأة أخرى من قرية بعيدة، طلقها قبل أن يتزوج منها فأخذت ابنها معها لحضانته، وحين بلغ السابعة ذهب الزوج ليسترجعه من أمه ليعيش فى البيت بين إخوته الأصغر.

كان ولد زوجها قد نال من تدليل أمه ونفخ روح الكراهية لأبيه وإخوته ما جعله يبدأ التمرد والرفض منذ الدقائق الأولى لدخوله البيت، ففوجئ ببطش أبيه، عصف به الرعب حينما انهال عليه بالضرب والركل بلا رحمة، قالت المرأة آلاف المرات إن ضربات الأب للولد المسكين قد تركت علاماتها الزرقاء والحمراء على جسد ولدها الرضيع، كل كف أو ركلة أو عصا تركت آثارها فى نفس مكانها من جسد وليدها، وما مرت أيام قليلة إلا وقد دفنت ولدها الرضيع، أخذت ابن زوجها وهربت به إلى بيت أبيها لا حماية له فحسب، بل حماية لوليدها الأكبر أيضًا وفى حكاية أصبحت تروى بين الجيران، حطمت المرأة كل ما هو معروف عن زوجة الأب من إرث، وجعلت من حماية ورعاية ابن زوجها مسألة حياة أو موت، ولكن بطش الزوج وعنفوان غضبه واندفاعه كانا يكتسحانها

اكتساحًا، وهكذا دفنت ولديها، وخلال عشرين عامًا شيعت للمقابر ستة من الذكور وبنتًا وأُجهضت مرتين، وهى تمتلئ باليقين الراسخ أن دم الجميع يلطخ يدى الزوج ويلتف بعنقه.

لقد نجا لها من الموت ولدان وبنت، كبروا مع أخيهم غير الشقيق، وتزوج الجميع، وحينما رزق ابن الزوج بولد دبت فيها حيوية عجيبة، وأخذت الولد لترعاه وتربيه فى حجرها وفوجئنا جميعًا بتدفق اللبن من ثدييها وهى فى الستين من العمر.

مات الزوج قبلها بعشر سنوات، لكنها ظلت تردد حكاياتها عن أبنائها الموتى، وحين شعرت أن نهايتها قد دنت كانت وصيتها الوحيدة لأولادها وجميع أقاربها ألا يجمعوها مع الزوج فى قبر واحد..

١٢ ـ نخالة الكوليرا

نار سريعة تندلع بين الماء ومعجنة الجير الحى وتفح بنشيش مكتوم وبخار يتنفس متعاليًا لافح الحرارة، وأنا فى السابعة، أريد أن أدس يدى فى هذا الخليط العجيب لأتحسس فعل السحر وجسد المعجزة المذهلة: نار من الماء وجمر خفى من بياض الجير الحى الذى يشبه دقيق القمح.

أسرع الأهل فأبعدونى بغلظة، وظللت طوال النهار أرى عجينة الجير بعد أن انطفأت نارها السرية وتخمرت ببعض التبن وحملها الفعلة فى القصاع وفوق ألواح الخشب وصعدوا بها إلى الأسطى فوق السقالة، فيتناول منها على لوحه الخشبى ويكسو الجدران بالمسطرين أو المحارة، وتلك كانت هى اللمسات الأخيرة التى يكتمل بها بناء بيتنا الجديد بعد أن ضاق القديم وتهدم، فلم تعد لنا به سوى غرفة واحدة ذات قبو مرتفع ينتهى بفتحة دائرية صغيرة يطل منها

الضوء الشاحب، وزريبة بغير باب، إذا علت أرضيتها بوضع التراب الجاف تحت البهائم تسربت إلينا خيوط بولها وتسللت من عتبة «القاعة القبو» وقد نصحو من النوم على نزيزها الذى ينشع من تحت الحصيرة وقد ابتلت مراقدنا.

كانت تجربة الهدم والبناء ومواويل المعلم «محمد حبلص» وهو يعلو بالسقالات مدماكًا بعد مدماك، من تجارب الفرح بالعمل والإنشاء وتشكيل البيت لحظة بعد لحظة، وأعمق ما تركت التجربة من دهشة وعجب كان مشهد الجير الحى، ويالها من صفة، وهو يتوقد ويشهق ويفهق بسره المكتوم، وهى الدهشة التى تحولت بعد ذلك إلى لوعة غاضبة وهلع مكلوم.

اجتاح البلاد وباء الكوليرا، وانتشر الخوف الغامض والتوتر المذعور حتى من ملامسات الأيدى ولقمة الخبز وفخّار الأباريق وشفاه القلل وجرعة الماء، وهبت إلى القرية ثلة من عساكر النقطة يقلبون أقفاص الطماطم والفاكهة والخضروات على الأرض ويدهسونها بأحذيتهم الغليظة، ويصادرون ما يعرضه الباعة الفقراء من أقراص الطعمية وأوانى الفول وعلب الحلوى..

هول ما بعده هول، ومحاولات متخبطة مستميتة لدفع غوائل المجهول، ومتابعة يومية لإحصاءات الموتى فى طول البلاد وعرضها، وأخبار محاصرة الموت وبشائر اللقاحات والتطعيم. والضرورة القصوى

لاستخدام عصير الليمون فى كل شىء حتى وصل ثمن الليمونة الواحدة جنيهًا كاملاً، وهو ما يزيد على أجر العامل الزراعى فى شهر كامل.. لم أر قريتى فى حال من البؤس والهلع وصفرة الموت المتربة مثلما رأيتها فى تلك الأيام.

سقط من القرية عدد من الضحايا، وكانت ابنة عمى «بسيونية» أول من سقط، كانت فى مستشفى الحميات بالمركز وجاءنا خبر موتها بالكوليرا، وبدلاً من المجىء بجثتها لتدفن فى مدافن العائلة دفنوها هناك فى مقبرة من الجير الحى، فأصابنى فزع غاضب لا يوصف.

كان وجدانى وعقلى قد امتلآ بما أسمع عن قيام الميت فى قبره لأول الحساب، إذ ترتد إليه الروح والحياة لمواجهة منكر ونكير وهما يسألانه: من إلهك ومن نبيك وبأى كتاب تدُين، وفى وهلة الفزع يحاول الوقوف فيصطدم رأسه بسقف المقبرة، ويرى الملكين المرعبين، فإن كان من أهل اليمين واليقين ثبت قلبه وامتلك جرأة الرد الواثق والجواب المطمئن المبين، فقبره روضة من رياض الجنة، وإن كان من أهل المشأمة، فقبره حفرة من النار وهوت عليه المقارع والمقامع، ونهشته أنياب الشجاع الأقرع، وهو ثعبان كونى هائل، له سبعون رأسًا وفى كل رأس سبعون نابًا وسبعون لسانًا تنفث السم، وتعرى العظام، ويستقر الهالك المدان فى حفرة الجحيم إلى يوم الحشر.

أخذت أصرخ صراخ الرعب المكتوم وصور الموت وأخيلة القيامة الأولى وأهوال ما أعرف من أفاعيل الجير الحى.. فأى قبر رهيب لك يا ابنة العم وأى غسل يتضرم ما بين دمك وعظامك وبين كفن النخالة البيضاء المرعبة !!

١٣- مشهد الطوفان

وقف بيننا مفتوح القميص ذى الأكمام القصيرة بشعره الأسود الفاحم الحليق على الطريقة العسكرية ووجهه الأسمر المشرق وعينيه الواسعتين الجاحظتين قليلاً، وأسنانه المفلجة، وفتوته الشابة، وهو يتلذذ بنطق الكلام الجميل وسرد المعلومات التاريخية بحذق وجاذبية.

لم يكن يكبرنا إلا بسنوات قليلة، فكأنه واحد منا ونحن نصغى بنشوة المعرفة إلى درسه عن عصر النهضة الأوروبية، ويفاجئنا بعرض مطبوعات ومستنسخات باهرة من فن دافنشى ورسوم مايكل أنجلو وروفائيل، وكانت المرة الأولى التى أرى فيها عبقرية الفن والألوان والتصميمات وموضوعات اللوحات والتماثيل، وارتباط كل ذلك بمفاهيم النهضة والنزعة الإنسانية ونشأة الآداب والفنون باستعادة واستلهام العصور الكلاسيكية ومثلها الجمالية وإنجازاتها الفكرية.

لا أستطيع الآن استرجاع حقيقة ما عصف بى من نشوة عليا جعلتنى أرتعد وتسح الدموع من عينى، وأنا أتابع ما احتشدت به مقصورة السكستين من لوحات الخلق، والهبوط من الفردوس والطوفان وقصص الكتب المقدسة حول الأنبياء وصراع الخير والشر وعالم الملائكة والقديسين، وكدت أصرخ وأنا أتتبع تفاصيل الطوفان وقد تعلقت عيناى بامرأة تحمل وليدها ويتشبث ولدها الصبى بساقها وقد التفت اللوحة بالذعر والتطلع المرتعب وروح العاصفة المبلة وانفجار السماوات والأرض بالماء.

أصبح مدرس التاريخ فى أواسط الخمسينيات فى مدرسة منوف الثانوية بطلاً من أبطالى الروحيين ورائدًا ثقافياً فتح أمامى أبواب اللهفة العميقة والبحث المضنى عن عوالم الفنون التشكيلية، عصوراً ومدارس وفنانين.

كنت أترقبه كل صباح أمام باب المدرسة، بين كوكبة مضيئة من المدرسين الذين يجيئون كل صباح بالقطار من القاهرة وغيرها من المدن والبلاد، ولكننى لم أبادله الكلام أبدًا، وهل يستطيع أمثالى الحديث مع تاريخ الإنسان بفنونه وآدابه وملاحمه وقد تجسدت فى رجل!! فى اختبار نصف العام كتبت فى إجابتى تعليقًا على صيغة سؤال من الأسئلة وبينت ما فيها من ضعف وافتقاد للدقة، ظناً منّى أن عمق الرابطة الصامتة بيننا قد خلق وشيجة من كرم الحوار تسمح لى بالمناقشة، ولعلى ظننته سيفرح.

ففى اليوم التالى نادى بغضب: أين فلان؟ فوقفت متوجسًا، قال: أنت قليل الأدب.. وقبل أن يتابع أصابته الدهشة البالغة إذ رآنى متفجر العينين بالدموع فى صمت، قال: ماذا بك؟! قلت من بين الدموع: أى مدرس إلا أنت.. أنت بالذات. سألنى مستوضحًا، فسألته وأنا أبكى: ألا تعرف كم أحبك وأحترمك؟! اتسعت عيناه بالدهشة وأمرنى بالجلوس.

قبل نهاية العام الدراسى بقليل اختفى نهائياً ولم نعد نسمع عنه، وعرفت أنه نقل إلى مدينة لعلها القاهرة أو بنها، وأحسست بفجيعة اليتم وهول الوحشة، واعتصرتنى الحسرة لأننى لا أعرف اسمه الكامل ولا عنوانه، لم أتجرأ على السؤال، وهكذا غاب فى ظلمات المجهول، ولكن وجهه وصوته ظلا علامة مضيئة تلاحقنى، وكلما دخلت متحفاً أو معرضاً للفن أو قلبت كتاباً تشكيلياً فى أى مكان من العالم لاح لى بوجهه وصوته، ولقد تساءلت آلاف المرات: من أنت يا سيدى.. ما اسمك وأين أنت الآن؟!

بعد أكثر من ثلاثين عاماً، وأنا أعبر ميدان رمسيس ومعى بعض الأهل، رأيته مقبلاً من بعيد ومعه أحد الناس يكلمه، إنه هو لم يتغير منه شىء سوى بعض الشعرات البيضاء والسمنة الخفيفة، نفس أناقته وحضوره الفخم الموحى وأسنانه المفلجة التى لم تنقص، وعينيه المضيئتين.

التفت كل منا وحدق فى وجه الآخر بنظرة التعرف والتذكر المرتاب، قلت لمن معى: انتظرونى، وهرولت

إليه بلهفة الفرح... هى التفاتة واحدة.. ولكن زحام الميدان طواه عنّى، فأخذت أجرى كالمجنون وأحدق فى الوجوه، ولكن وجهه كان قد اختفى، وحينما ابتلت عيناى بالدموع، رأيت الميدان كأنه مشهد من لوحة الطوفان.

١٤ ـ ابن امرأتين

كأننى محور الرحى الذى يدور حوله حجر الموت ليطحن إخوتى واحدًا واحدًا، مات قبلى ثلاثة إخوة، ومات بعدى ثلاثة إخوة وأخت، وأنا أقف بين هاتين الموجتين الرجراجتين بعصف الموت، أحيا قصص من سبقونى، وأتجرع غصص من تخطَّفهم الموت من بين ذراعى.

لقد جاهدت أمى جهاد الحياة كلها لأفلت من الموت وأكسر همجية اللعنة المجهولة أو القدر الباطش أو الصراع غير المتكافئ بينها وبين قبائل الجن والأشباح، أما وقائع الحرب الضروس دفاعًا عنى، فقد خاضتها بدءًا من عتمة الفجر، أخذتنى بيدها وفى اليد الأخرى جريدة نخل، وفى تقليد محكم لمسلك وأدبيات الشحاذين المحترفين، مرت بسبعة أبواب لأصحابها اسم واحد «محمد» وبصوت يذيب

القلب حزنًا واستدرارًا للشفقة والمرحمة كانت تطلب من كل بيت صدقة للولد المسكين «عبد الله»، وتحدد أن تكون الصدقة قرشًا فضيًا مثقوبًا ورغيف خبز. وهكذا جمعت القروش الفضية المثقوبة السبعة والأرغفة السبعة ورجعنا معًا إلى بيتنا قبل طلوع الشمس. أما الأرغفة فكانت لطعامى سبعة أيام، وأما القروش فقد طلبت من أحد الحدادين أن يصنع منها فردة خلخال وضعتها حول قدمى اليمنى وحذرتنى من أن أخلعها لأى سبب.

فى غروب أحد الأيام، ذهبت بى إلى امرأة فى القرية لتبيعنى لها فأكون ابناً لها بالبيع والتبنى، كانتا اتفقتا على ذلك من قبل، وبدأ الطقس المرعب:

أدخلتنى المرأة من طوق جلبابها الواسع وأخرجتنى من الذيل الواسع للجلباب سبع مرات وأنا أنحدر صارخًا فوق جسدها العريان، ثم قالت أمى بحزم: هذه أمك، وقد كنت أمانة عندى وهأنا أردك إليها تركتنى وخرجت وأنا أصرخ وأتشبث بأطراف ثيابها، والمرأة الأخرى تشدنى وتستبقينى فى بيتها، وأخذت تلاطفنى وتضمنى بين ذراعيها وتقدم لى وليمة من البيض والجبن واللبن المحلى بالسكر، وأنا أنظر حولى مستطلعًا لأركان البيت. أشارت إلى ولد يقاربنى فى العمر وقالت:

هذا أخوك «متولى» ستتامان وتلعبان معًا، وستضربان معًا كل من يعتدى على أى منكما.

انقضت الليلة وأنا أتقلب وأبكى وأحاول الفهم والتصديق واستتبات مشاعر الانتماء لهذا البيت الجديد وأسأل نفسى: فمن يكون أبى إذًا؟

فى إشراقة الصبح قالت المرأة: اذهب إلى أمك الثانية، أنت منذ اليوم ابن لنا نحن الاثنين معاً، إذا أغضبتك أو أردت أن تلعب مع «متولى» أو تأكل وتبيت عندنا فلا تتردد.

هكذا أصبحت مولودًا من امرأتين، تقاسمتا قلبى وخيَّمتا بظلهما الدافئ وحنانهما الفياض على طفولتى الباكرة، ولم أكن أتردد فى التنقل بينهما، ومع تقدم العمر، وبعد الإفلات من مناجل الموت شرحت أمى وأفاضت فى تفسير الوقائع والمعانى، لكننى ظللت أحس أعمق الإحساس بأننى وليد امرأتين، مزدوج الوجود والعمر، ومزدوج الفجيعة بموتهما.

١٥ـ عتبة المراهقة

استغرقتنا حالة اللعب بالطين والبوص ونوى البلح وأغطية الزجاجات حتى قاربت الشمس على صفرة الأصيل، وقبل أن ينفرط مشغل الصبا الخلاق هذا، فاجأتنا البنت الطرية الجميلة بما صنعت، فرأينا عروسًا من الطين بين يديها، وأخذنا ننظر بذهول وحسد ورغبة مجنونة فى أن يمتلك كل منا هذه التحفة العجيبة أو يحطمها فلا ينالها أو يملكها أحد.

كانت البنت الطرية الجميلة قد جعلت ملامح العروس الطينية تكاد تنطق، وقد مسدتها بلعابها فى رقة ونعومة جعلتها تلمع، ونقشت حول نهديها وسرتها نقوشًا تشبه نقش الكعك، تستدير فى انحناءات طيعة مرهفة، ونقشت كفيها بما يشبه أثر الحناء، وغرست بين شفتيها عددًا من حبات الأرز فبدت كأنها تفتر عن مولد ابتسامة.

بعد ذلك بأعوام قليلة، وفى خطفة حلم باهر، كان النوم ينشقُّ عن تلك العروس الطينية وقد اكتست لحمًا ودبت فيها الحياة وقبل أن أنطق بكلمة دهشة واحدة تساقطت من يديها ورود الحناء وأطيارها وغطت جسدينا العريانين.

هى لحظة خاطفة.. أفقت بعدها محمومًا بنشوة الاكتشاف وفداحة السر، وأسرعت مذعورًا أدفن ثيابى بما فيها من علامات. تحت أكوام الثياب المتسخة، وخرجت بإحساس طاغ هو مزيج من الخجل والأسئلة المبهمة والاكتشاف الجرىء، خرجت شخصًا آخر.

١٦ ـ استئلاف

كنا ـ نحن الإخوة الثلاثة ـ نأخذ مكاننا على مدار الساقية، أواخر الربيع، لنبيت الليل فى حراسة تكعيبة العنب وشجرة المشمش الهائلة التى بدأت تساقط حبات الكهرمان المضىء فى الفجر والأعواد القليلة من أشجار الرمان والتين والليمون وزريبة البهائم، ويستمر معسكر الحراسة حتى أواخر الصيف.

كان النوم على مدار الساقية.. من تحتنا حصيرة مهترئة ومن فوقنا حرام من الصوف قديم، وهواء الليل يتنفس بالبرد الخفيف، ورائحة الغيطان وأصوات الكائنات الليلية تمثل الخروج من السجن وسلطة الفزع والبطش فى البيت إلى هواء الحرية والاستسلام المستغرق للتلقائية وصيد السمك والعصافير وممارسة الإبداع غناءً وتشكيلاً للطين وصناعة البنادق من البوص والسهام والرماح من

أغصان الشجر وعدم الخوف من صبغ اليدين والشفتين بثمار التوت.

كنا منكمشين ذات ليلة تحت الحرام الصوف من لذعة البرد قبل الفجر، وقد أرقت وكشفت وجهى لأستمتع بطراوة الهواء المندى، ففزعت لصدمة رائحة غريبة نفاذة الحموضة خانقة، فرفعت رأسى مستكشفًا، فراعنى وقوف كلب هائل الحجم فوق رءوسنا، رفعت صوتى صائحاً: «امش امشِ» فلم يتحرك، تناولت فردة قبقابى الخشبى وقذفته بها.. فتحرك ببطء وثقل وتردد، استيقظ أخى الأكبر واستطلع ما يحدث، وقال لى بصوت خفيض مرتعش: هذا ذئب وليس كلباً.. اسكت وسوف يمضى لحاله، التفتُّ إلى الذئب أتأمله وهو يبتعد متثاقلاً بطيئًا ورائحته تنحسر شيئاً فشيئاً، لم أكن خائفاً، بل كان دبيب من الزهو والفرح وعلو المقام يتفتق داخلى..

وهكذا.. سوف يحكى الكبار والصغار عن الذئب.. ووحدى من سيقول إننى رأيته.

١٧ـ قوافى الخشب والماء

تواترت انفجارات الغضب واشتباكات الأيدى والعصى، وانزاحت زعابيب التراب مرات عن جرحى وأصحاب «ترينة» ومكسورى عظام وأضلاع، بما يكاد تنتظم مواعيده الدامية مع كل «نوبة رى» ودور سقاية للزروع، حتى أصبحت السواقى وشطآن الترع وسدود إقامة «منطل» الطنابير الخشبية ساحات لمعارك وعدوات وثارات لا تنتهى وبالأخص حول السواقى المشتركة.

قال أبى: لابد من ساقية خاصة بنا لا يشاركنا فيها أحد حتى نخرج من هذه المزاحمة الدامية بين قوم لا يعرفون العدل ولا النظام، ويحتكمون للمناطحة وخراب الذمم فى كل صراع.

قطع أبى شجرتى توت هائلتين، وألقى بالجذوع المقسمة على الأطوال المطلوبة فى مجرى ماء جار

حتى يتم تعطينها، ودفنها تحت طبقة من التراب فى الشمس حتى يجف خشبها ببطء فلا يتشقق أو تلتوى ألواحه، وظل عاماً كاملاً يهيئ ما تحتاجه الساقية من المسامير الحدادى المختلفة والغراء وألواح الزنك، حتى بدأت لحظة التنفيذ العملى بحفر البئر وتبطينها بالطوب الأحمر والأسمنت.

كان الحفارون ينزلون فى باطن الحفرة الواسعة شيئاً فشيئاً حتى ظهرت طبقة من الرمل الأبيض الناعم فأصابتنى دهشة بالغة إذ تنكشف الأرض أمامى عن صورة أرض تنفجر بالخضرة والحياة لكنها تشبه حبة الملّبس: طبقة هزيلة من السكر تكمن تحتها عجينة من الذرة لا تستساغ.. فماذا تكون القرية والدنيا كلها لو تآكلت هذه القشرة لأى سبب!!

كنت أذهب مع أمى كل ضحى وهى تحمل الطعام والشاى والسكر وصناديق المعسل للحفارين وتلت الدخان لأبى، وقد وجد الحفارون أثناء العمل ثعبانين لم أر مثلهما طولاً وغلظاً، فصرخت أمى ألا يقتلوهما، فهما الوليفان الحارسان، واسترحمتهم ليطلقوا سراحهما ويتركوهما يذهبان لحال سبيلهما، ولكن الحفارين انهالوا عليهما بالفئوس وأنا أرتعد بالخوف والتقزز من الصفرة الدهنية ونغابيش السواد الملطخة بالدم والوحل، برطمت أمى قليلاً ثم صمتت تماماً عندما نهرها أبى.

انتهى الحفارون والبناءون من البئر ومجاز «الهرّى» الموصل بين الترعة وبئر الساقية، ووقف عم ميخائيل،

نجار السواقى بقامته الربعة المدكوكة وقد ظهر شعره الذى وخطه الشيب تحت الطاقية الملفوفة بالشال الأبيض، وامتلأ وجهه بشاربه الكث المصبوغ بصفرة المعسل، وصوته القوى العميق بلهجته الآمرة يحدد لمساعديه طريقة رفع جذع التوت مستوياً فوق حمالتين قويتين عاليتين، وقد خط بقلم الرصاص خطوطاً متجاورة تحدد سمك ألواح الخشب ثم صعد ابنه ووقف فوق كتلة الخشب المرفوعة، ووقف هو تحتها وبينهما منشار كبير يعلو ويهبط وكل منهما يشده بإيقاع منضبط، وعم ميخائيل يزيح عن وجهه نشارة الخشب بين وقت وآخر.

كنت أنظر إلى عم ميخائيل بإعجاب تخالطه قداسة المعرفة بسر الخشب والسيطرة على الماء والقدرة على التشكيل الذى يهب الحياة والخضرة للحقول، أذهب مع أمى كل ضحى فيستقبلنا بصوته العميق المرح وبعض السعال: اليوم عدس أم بصارة أو بيض بالسمن أو كلشنكان!!

كنت أرى الساقية تتخلق أمامى، تتبت ضروس الخشب على الترس الكبير والصغير وتشتبك الألواح وتظهر فراغات القواديس وتكتمل دائرة العلبة الكبيرة والصلائب والجازية الكبيرة ذات الشعبتين، وأنا أزداد انبهاراً بعم ميخائيل، أو المعلم والمقدس كما يقول أبى، وأعجب أشد العجب من قدرته على أن يكسو فكرته العجيبة عن رفع المياه إلى القنوات بكساء من الخشب يجسدها ويقيمها كياناً يُرى ويلمس، وقد صار هو

كياناً مدهشاً تختلط فى تكوينه مادة الخشب وبراعة التشكيل والحركة وروح الخضرة وسر النهر، وحينما دارت الساقية وتدفق الماء من عيون قواديسها وقد تحلق الجيران والأقارب حول مدارها، وأبى يغمز البقرة التى تشدها غمزة الفرح والزهو، كنت أريد أن أقبل يدى عم ميخائيل، وظللت أتابعه بعد ذلك وهو يتنقل بين السواقى إصلاحًا وإنشاءً، وحين سمعت بموته أحسست أعمق الإحساس بأن أنين السواقى فى الحقول إنما هو ترجيع بكاء وأنين مرثية تدب قوافيها الخشبية والمائية إلى مسامعه تحت التراب.

١٨ ـ شفافية الموت المرح

انكمش الصبى ذو السنوات العشر فى آخر الصفوف وانزوى ينفخ فى يديه ليستشعر بعض الدفء، ودخل شيخ لا يزيد عنه فى الطول إلا شبراً أو شبرين، عمامته محبوكة وكاكولته تضيق بسمنته الظاهرة، بيده عصاه المعقوفة، ووجهه البشوش يشع بالطيبة والمهابة وتلمع فيه شامة سوداء صغيرة.

حك أنفه بكفه وتنفس نفسًا عميقًا بصوت مسموع ـ عرفت فيما بعد أنها حركة اعتادها لإدمانه تشمم الروائح والعطور ـ وقال: اسمعوا نكتة الصباح، وألقى النكتة فانفجرنا بالضحك، ثم قال: اسمعوا خبر اليوم، وقرأ من جريدته خبرًا، ثم قال: اسألونى سؤال الصباح، فقمت مرتبكًا خائفًا أسأله عن معنى كلمة وردت فى نص الخبر الذى قرأه، فكتبها على السبورة وشرحها واستخرج منها جميع الصيغ الصرفية.

كان هذا الطقس الصباحى المدهش لا يتحول ولا يتبدل طوال سنوات الدراسة الابتدائية التى التحقت بها بعد سنوات المدرسة الإلزامية الأربع، وكانت المدرسة هى «مدرسة الأقباط الكبرى» فى مدينة منوف، وهى مدرسة أهلية خاصة أنشأتها وقامت على رعايتها وإدارتها جمعية خيرية مسيحية وينفتح باب الكنيسة على فنائها، وكثيرًا ما كنا نرى رجال الدين بسمتهم وهندامهم المميز. تفتحت مشاعرى لهذا الشيخ الظريف المرح، بطقسه الصباحى المبهج وطريقته الفذة فى شرح دروس النحو التى جعل جميع أمثلتها التطبيقية تدور حول الطعام وأصناف المأكولات وبالأخص إعزازه العجيب للأوز الذى لا يخلو درس فى النحو من ذكره، فنضحك ونفهم.

اقترب منى الشيخ «درويش أبو شنب» وحدق بعينيه الضيقتين الطيبتين وسألنى: مالى أراك دائماً منكمشًا على نفسك فى آخر الصفوف!! ماذا حفظت من المقرر؟

قلت : حفظت كل ما فى الكتاب من شعر مقرر وغير مقرر، وحفظت معظم ما فيه من نثر وإن يكن خارج المقرر، سألنى: هل تحفظ شيئاً من القرآن؟ قلت: الستة أجزاء الأخيرة وسورة يَس، قال: أسمعنى سورة «الرحمن» وأضاء وجه الشيخ وهو يسمعنى، وقد كانت لى طريقة دامعة فى الترتيل تدفعنى أنا نفسى للبكاء، لا أخطئ فى قلقلة أو إدغام أو غنة أو وقف ووصل أو تفخيم وترقيق، وتتبع معانى الآيات من قلبى

وجوارحى فأفرق بين أساليب الاستفهام والوعد والوعيد والوصف التقريرى، والشيخ يقاطع ترتيلى بصيحة إعجابه وبهجته: الله.. الله.. انتهيت فمسح على رأسى بيده المعطرة، ثم أسمعته قصيدة من شعر شوقى وإحدى الخطب الوعظية لعبد الله النديم، وفوجئت به يخلع عمامته ويضعها على رأسى ويضع عصاه على ذراعى، ويطلب منى الاستماع «وتسميع» تلاميذ الفصل وتحديد من يحفظ ومن يستحق العقاب، وأجلسنى فوق «درج» فى أول الصفوف ووجهى إلى التلاميذ وهو ينصت.

كنت أنتظره كل صباح ممتلئًا بالبهجة المكتومة المستعدة للانفجار بالضحك حينما يصطنع صرامة الجد وهو يقول نكتة الصباح، ثم أحاول إبهاره بأن أكون صاحب سؤال الصباح الصعب المعقد الذى أنتزعه من بعض كتب اللغة التى وقعت بين يدى مصادفة، وبالأخص «خزانة الأدب» للبغدادى وألفية ابن مالك «وزهر الآداب» للحصرى، بما فيها من مهجور وشاذ ومختلف عليه.

أطلق الشيخ علىَّ لقبًا ينادينى به دائمًا هو «مولانا»، وكنا نكبر به ومعه عامًا بعد عام، حتى فوجئت به يطلب أن أنتظره كل صباح فى مكان معين قبل دخول المدرسة لأصحبه حتى بابها، فيضع عمامته على رأسى ويشبك العصا فوق ذراعى ثم يتأبطنى ونتدحرج معًا إلى المدرسة وبعض الناس يشيرون إلينا.

قال لى ذات يوم: ليس لى إلا ابنة واحدة، وأعتبرك ابنًا لى، وربما اجعلها زوجًا لك ـ إن أفلحت ـ فأنتما جحشان يناسب كل منكما الآخر، فضحكت.

مرت سنوات الدراسة الثلاث، ولكنه فى أوائل السنة الرابعة بدا شخصاً آخر غير الذى نعرفه، أربدَّ وجهه بهموم ثقيلة لا نعرفها، وثقلت حركته وغاضت حيويته وأصبح يضيق بكل شىء، يغتصب الابتسامة مكرهًا، ويقوم بالطقس الصباحى بلا روح أو بهجة، وشاعت بيننا شائعات عن مرض غامض أو خلاف مستحكم بينه وبين بعض أقاربه، حتى كان اليوم المشهود الذى لا ينسى: دخل حجرة الدراسة واجمًا فلم يلق بتحية أو يمارس طقسه المقدس، وجلس على كرسى لأول مرة منذ عرفناه، ووقف فجأة وقد جحظت عيناه ثم تقيأ بصوت مرعب من النزع والتأوه، فانطرحت دماء متخثرة وسائلة، ومد يده ليتشبث بالمكتب فجَّره معه ووقع على الأرض.

علا صراخنا فهرع إليه المدرسون، ثم حملته عربة الإسعاف، وفى صبحية اليوم التالى وقفت المدرسة كلها تتقدمها فرق الكشافة وفرق موسيقى المطافئ، وانتظم الجميع فى خطوة جنائزية رهيبة ينخلع لها القلب ويذوب فى إيقاعها الجسد، ونعشه يعوم فى بحر من البشر والدموع.

فى إحدى زياراتى لمقبرته، قال لى حارس المدافن:

إياك أن ترسم أو تكتب شيئاً على جدران المقبرة كزملائك فلم أفهم ما يعنى، وحين بلغتها وجدت الجدران قد ملئت برسوم الأطعمة وموائدها وأسراب الأوز السارحة..

حملت مقبرته فى قلبى وأنا أتنقل فى ربوع الدنيا، أتذكر شيخى المتواضع المجهول فأتذكر عبقرية العلم المرح وشفافية الموت الذى لا يخلو من بهجة النحو واللغة.

١٩ ـ الجنون الجميل

لم تفلح محاولاتنا فى تلقينه ما سوف يقول أمام ضابط نقطة البوليس خوفًا عليه من ترحيله إلى مستشفى المجانين، فجنونه هادئ لا يخلو من مرح وفكاهة وخفة دم ونوبات طويلة من العقل وصفاء الذهن، ولكنه بعد كل محاولة يعود إلى إصراره على الاعتراف بأنه ضرب جاره وهو نائم برجل الزير ليقتله، جزاء له وعقاباً على ما كان ينتويه من وضع «السم الأسمر» فى الطعام والشراب، قلت له: ياخال حسن الرجل لم يمت، وهو مستعد للصفح عنك ويقول إنك ضربته بخيزرانة رفيعة أسالت دمه، فلا توقع نفسك بنفسك فى مصيبة. تهكم على وسخر منى وهو يقول: خيزرانة؟!

أنا أضرب من يضع لى «السم الأسمر» بخيزرانة؟! فشر.. لقد ضربته برجل الزير لأقتله، وعلى الرغم

من إشفاقى عليه وحزنى من أجله، فإن كلماته وحركاته وانتقاله المفاجئ من القراءة الرصينة للقرآن إلى الغناء الهازل والشكوى من وجع الدماغ جعلنى أكاد أموت من الضحك.

تمت تسوية المسألة قبل وصولنا إلى نقطة البوليس فى القرية المجاورة، وعند رجوعنا، وهو على ظهر الحمار، سألنى: أنا خالك؟ ابن من أنت؟!

قلت: أنا عبد الله، ابن سيدة بنت عمك. قال: لِمَ لم ترسل لى أمك فطيرة معك! أنا ميت من العطش.. فأسرعت أملأ الجردل من ماء الترعة ليشرب، وحين مد أحد المرافقين يده ليحمل جردل الماء إليه، صرخ بعنف: إياك أن تلمس الجردل. أنت تريد وضع «السم الأسمر» لى.. دع ابن سيدة يحمله إلىَّ.. فحملته وأنا لا أكاد أتماسك من الضحك..

سألته مرة: ياخال حسن.. لماذا لا تذهب إلى طبيب يداوى لك وجع الرأس؟ قال: وماذا يفعل الطبيب والعصافير تطير ثم تحط من جديد بزقزقتها التى حرمتنى من النوم.. لماذا تنظر إلىَّ هكذا.. هل تظن أننى مجنون!! اسمع.. ها هى العصافير بدأت تتوافد امش الآن.. اذهب إلى أمك.

قال الأقرباء إنه كان فى غاية الذكاء، حفظ القرآن وهو صبى، وحينما أراد الالتحاق بمدرسة المعلمين تعنت معه العمدة الطاغية فلم يمكنه من شهادة الميلاد وشهادة حسن السير والسلوك فضاع كما ضاع عدد

كبير من شباب القرية الأذكياء، وإثر مرض وهزال شديدين لحق به ما ترى من نوبات الجنون.

كانت أمى تبدى حسرتها وعميق شفقتها عليه وتبكى إذا تداولت القرية بعض غرائبه، مما جعلنى أهتم بالجنون وقصص المجانين وحين رأيت مع أحد زملائى فى مدرسة منوف الثانوية مجلداً ضخماً به جزءان من كتاب «وحى القلم» للمرحوم مصطفى صادق الرافعى وقلبت صفحاته ووقعت عيناى على مقالات قصصية بعنوان «المجنون» رجوت زميلى أن أقرأ المجلد بجزأيه، وما كدت أقرأ صفحة واحدة حتى عقدت معه أروع صفقة فى العمر، بأن بادلته الكتاب بعدد كبير مما يختاره من كتبى، وألقيت بنفسى فى خضم «وحى القلم» بمعماره اللغوى المحكم المصقول، وأفانين بلاغته التصويرية الدقيقة المرفهة، وبيانه الساحر بالبصيرة المضيئة، واغترافه المدهش من ينابيع التراث، ويقظته الأمومية على آلام وعواطف البشر.

استولى علىَّ مصطفى صادق الرافعى ثلاث سنوات كاملة أخرج من كتاب إلى كتاب، وأعيد ما قرأت مرات، وقد قادنى وحى القلم ومعه «حياة الرافعى» للمرحوم محمد سعيد العريان إلى مجموعات كتب الرافعى فى الحب والجمال، والنقد والمعارك الثقافية، وأدخلنى ذلك معمعة الحياة الثقافية والعاطفية وقصص الإعجاب والعشق التى

كانت تدور وتعصف حول «الآنسة مى» بثقافتها الرفيعة وشخصيتها الفذة وحضورها المثير للأهواء والرؤى واحتدام المنافسات الأدبية والفكرية وانضم إلى هذا المعسكر الأخاذ من أدباء المهجر جبران ونعيمة وعريضة والريحانى، أنتهى من هؤلاء لأعود للرافعى، وأنتهى من الرافعى فيعيدنى إليهم من جديد.. ثلاث سنوات: من الحمى المقدسة، وأنا ذاهل عما أنا فيه من رثاثة وفاقة ومسغبة، يعتصرنى الحزن لما أصاب «الآنسة مى» من الاكتئاب الذى أودى بها إلى الخبال والجنون، وقد هالنى أن تكون نهايتها فى مستشفى «العصفورية» ببيروت وقد تساءلت متأملاً اسم المستشفى: هل كانت مثل خالى حسن. تنهش عصافير الخيال بزقزقتها الوحشية لحظات النوم القلق، ويلتهم ذكاءها وعذوبة حضورها اضطهاد موهوم مثل «السم الأسمر»!! وكم حاولت أن أستبطن وأستبصر لحظة موتها.. أكانت تغيب فى عاصفة من العصافير أم كانت تبرأ شيئاً فشيئاً من محنة الوجود بأن أخذت العصافير تطير عن أغصان عقلها المكدود وتترك رأسها فى مطلق الصفاء المشرق!!

٢٠- صباح الغضب

لم أكن قد سمعت قبل ذلك الصباح أن فى الدنيا شيئاً يسمى «التفاح الأمريكانى»، ولو أننى سمعت عنه فى ظرف آخر لسألت القائل عما يكون وعما تكون صفته هذه، ولكن القائل كان يقصد تحقير «النبق» وازدراء صاحبه فارتكبت حماقة وددت لو استطعت توضيحها وشرح أعذارى فيها إلى زميل دراسة مازلت أتذكر وجهه واسمه الأول، وكان ذلك منذ نصف قرن إلا قليلاً.

فى ذلك الصباح البعيد، وفى طريقى إلى المدرسة، جمعت كمية كبيرة من ثمار «النبق» الناضجة ذات الطعم الرملى المعسول والرائحة المميزة المثيرة للاشتهاء وتحلب الريق، ملأت جيوبى لأوزعها على أصدقائى، «كبشة» لكل واحد.

وقف يرقبنى فى ركن بعيد هو وجماعته، وهو بينهم كالطاووس المنفوش، بملابسه الأنيقة ووسامته

ووجهه الذى يكاد «يبك» منه الدم والعافية، يحف به جو من التخلع ودلال النفوذ والسطوة، فهو ابن مأمور المركز يصطحبه من المدرسة وإليها جندى مائل الطربوش ببذلته الكاكى ذات الأزرار اللامعة، ويدق الأرض بقوة وهو يحمل له حقيبته ويسير وراءه.

. جاءنى واحد من جماعته يهمس فى أذنى: يسألك «نبيل» عما معك وتوزعه على أصدقائك. قلت: هذا نبق، ثم عاد يطلب بعض النبق من أجل «نبيل»، قلت: فليطلب هو بنفسه. سمعت «نبيل» يقول باحتقار وغيظ: إننى آكل التفاح الأمريكانى يوميًا. وحين عاد تابعه يلح فى طلب النبق له، أخرجت كل ما فى جيبى وطوحت به من النافذة إلى عرض الشارع.

بعد أيام قليلة نقل المأمور إلى مدينة أخرى وانتقل معه ابنه: فحزنت حزنًا شديدًا إذ وجدتنى مدينًا لابن المأمور بتوضيح وشرح لما حدث، وخلال نصف قرن لم يغادرنى هذا الإحساس بالدين، بعد أن أضيفت إليه حقيقة أخرى: لم يكن بخلاً منى بالنبق إذ طوحت به من النافذة، بل كانت أول فرصة تسنح لأعلن عن كراهيتى لمشهد جندى من عمر أبيه يأتمر بأوامره، ويخضع لإهاناته وتكليفاته الصبيانية السخيفة أمام الناس، ففعلت ما تصورته واجباً على الجندى لولا قهر السلطة وخوف العقاب ومجبنة الحاجة.. كانت حماقة مفاجئة من كرامة جريحة مكظومة، أما

الحقيقة الأخرى، فهى أن أدافع عن كرامة النبق.. فبعد ماذقت من تفاح الدنيا، والأمريكانى أيضاً، ظل النبق بطعمه الرملى المعسول ورائحته فى صباح الغضب ذاك أحلى وأروع من أى فاكهة فى العالم..

٢١ - ابتلاء

مـا كـدت ألتـقط المجلة من بائع الصـحف على رصيف المحطة ذات صباح مضبب به لسعة برد، وأفتش بين صفحاتها ملهوفًا لاهثًا، وأرى على صفحاتها قصيدتى النثرية الأولى التى تنشر نشرًا محترمًا بين أعمال الكبار المشاهير، حتى انقلبت أحوال القرية وتقلبت مواقف الزملاء والأصدقاء والأهل تقلب العاصفة.

تصورت فى البدء أن ذلك سيكون موضع فرح وزهو واعتزاز، وأن اليوم سيكون من أيام القرية المشهودة، ولكننى فوجئت بضراوة الموقف العدائى الكاره والمماحكات الصبيانية وأساليب الاستفزاز الهادئ التى انتشرت بين الصغار والكبار حتى وصلت للأميين، فمن تغن ساخرًا بعنوان القصيدة إلى ملاحقات الأسئلة الاستنكارية المستفزة، إلى تحلق مجموعات يطرح كل منها مقترحًا بتفسير هذه

الأعجوبة، كالغش والاستنساخ والسرقة والترجمة، واستدعانى كبار العائلة ليستجوبونى مع الترغيب والترهيب حتى أعترف، حتى وصل الأمر إلى مسامع أبى فكانت الكارثة، فقد سيق إليه النبأ فى جو من التحذير والنصيحة، والتخويف من ضياع وقتى فى الانهماك فى قراءات لا ضرورة لها، ثم دأب أحد أقاربى على تعذيبى بشكل يومى، فقد كان يسافر معنا فى قطار كل يوم، وكان يسوق إلى أبى وجبته اليومية من الأقاصيص والأخبار والملاحظات، وأبى يصدقه ويثق به، فيدخل علىَّ نافخًا بالغضب ويضربنى ضربًا مهلكًا بلا رحمة أو فرصة دفاع عن النفس.

قلت له ذات مساء، وقد فرغ من إنزال عقابه الأليم بى بعد فرية من مفتريات قريبى اللدود هذا: لم يعد أمامى إلا أن أقتله لأستريح.. وخرجت مسرعًا وأنا أصرخ:

والله لألقينَّ به تحت عجلات القطار، وأتشبث به لنهوى معًا بين العربات والعجلات.. والله لا أرجع عن قتله ولو وقعت السماء على الأرض..

فوجئ جرجس أفندى، محولجى المحطة، فى الصباح الباكر بأبى يسحبنى إليه فى مسكنه الحكومى ويسأله: الآنسة بنتك موجودة؟!

- نعم.. خيرًا!

- أريدها فى كلمتين.

ودخلنا، وجاءت البنت فسألها أبى: هل تعرفين هذا الولد؟

- أراه وأعرف أنه من أبناء القرية.

- هل أساء إليك أو آذى مشاعرك أمس؟

- ولا فى أى يوم، وليت الجميع مثله أدبًا وشهامة.

فوجئ الجميع بى وأنا أنهار ساقطًا على الأرض باكيًا صارخًا ذبيح الصوت، كأن مظالم الدنيا كلها قد انفجرت من حنجرة واحدة، وخرجت أجرى بين الحقول، أرتمى وأتمرغ وأود لو انشقت الأرض وابتلعتنى، وعواء البكاء الجريح يعصف بى، وقررت قرارًا لا رجعة فيه: لن أذهب إلى المدرسة بعد اليوم، ولن أبقى فى هذا البيت ولا فى هذه القرية، واستغرقنى حلم يقظة طويل، أناقش فيه صور وأساليب الفرار.

ظللت عشرة أيامٍ لا أدخل بيتنا، آكل وأنام كيفما وحيثما اتفق، وقد استولى علىَّ العزم على الفرار فلا أكاد أسمع أو أرى، وأمى تولول وترسل إلىَّ بضراعاتها أن أفعل أى شىء إلا ترك المدرسة، حتى ظهر فى أفق السفارة بينى وبين أبى شيخ جليل أحبه وأقدره - طيب الله ثراه - قال : يا بنى.. أنت قارئ مثقف وكاتب فنان ابتلى بمشقة الظروف.. فأين صبر الرجال وعزيمة الموهوبين وإصرارهم؟! عد إلى بيتك ومدرستك، وإنه ليل ينقضى تعقبه الشمس، والفرج قريب فلا تيأس..

نزلت عليَّ كلماته ببرد السكينة وهدوء الثقة وفرح البشرى، وتحت نظرات إعجابه كنت أتابع الخطى الأولى وأبدأ الانشقاق الجميل وكرامة العناد الذى لا ينكسر..

٢٢ ـ افتتاحية الحمى المقدسة

كنت أحاول تركيب وخلق هاتين الصورتين بخيالى فلا أستطيع، وأرقب الناس حولى فلا أجد شبيهًا لهما، وأحاول فهم معناهما ومعرفة سبب إلصاقهما بى ووصفى بهما فى لهجة ازدراء وسخرية غاضبة، وبشماتة فى بعض الأحيان، فلا أجد إلا مزيدًا من التضعضع والدخول فى انكماش النفس وانكسار الروح، وهل هناك شك مادامت أمى وأبى هما اللذان يدأبان على تذكيرى بين لحظة وأخرى بأن وجهى «يقطع الخميرة من البيت» وأن وجهى به «بريمة»؟!

ما من عمل أخفقت فى أدائه أو مهمة لم أقم بإنجازها أو خطأ مهما يكن تافهًا إلا انطلقت فى وجهى «البريمة» و «قطع الخميرة» حتى ترسخ فى يقينى بأن لعنة ما قد ولدت معى وأنى أملك وجهًا قد لحق به من التشوه القبيح والشرور المرئية ما يجعلنى فلتة من فلتات البشاعة والقبح.

كان هوسى بالشعر، بحثًا عن مصادره وقراءته وحفظه مسألة غير مفهومة ولا علاقة لها بأى طموح عندى، فقد كنت مسكون العقل والقلب بأن أكون واحدًا من اثنين : مقاتلاً على التخوم والثغور غايته النصر أو الشهادة، أو محاميًا يختال أمام منصات القضاء بطيلسانه الأسود، ينطق العدل على شفتيه ويرد المظالم ويملك العقول والقلوب بطبقات الصوت ويستعرض فى الأروقة سحر الكلام، ولم تكن المحاولات الأولى فى كتابة الأزجال والأشعار والقصص إلا مساسًا من قريب لهذا الطموح المزدوج.

حين رأيت فى «الرسالة» والمجلات والكتب صور الشعراء:

محمود حسن إسماعيل بعينيه اللتين تكادان تفران إلى قلبى ووسامته الوحشية، وشيللى وبيرون وكيتس وغيرهم من أصحاب الرقة والجمال الأنثوى وجدائل الشعر المتهدل، استقر فى أعماقى أن جمال الوجه شرط تكوينى للشعر والشاعر، فكانت البريمة والخميرة المقطوعة برهانين حاسمين على أن الشعر طموح جميل ممكن لكل البشر عداى، ومستحيل مقطوع به قطع الخميرة بالنسبة لى وحدى دون كل البشر، وإن يكن بحثى عنه واستنساخه وحفظه هوسًا جميلاً لا ينقطع.

ذات صباح شتائى مقرور، وقد دخلت حجرة الدراسة قبل زملائى بوقت طويل، أخذتنى لحظة

إشراق وبهجة لم أعهدها، وانتفضت فى جسدى وقدة إحساس مفاجئ بوحدة الوجود وذوبان الكل فى واحد إيقاعى جليل، ووقفت بسحر مباغت وفرح فيَّاض بما أتلقاه من كلام تنتظمه ضربات القلب وإيقاعات الشهيق والزفير وانتفاض جسدى برعشة النار اللافحة، وأخذت أكتب ما أتلقاه بقطعة الطباشير على السبورة، ولا أكاد أرى..

جلست محمومًا أسمع دقات قلبى وينشع العرق فوق جبهتى ومن جسدى، وتوافد الزملاء ودخل «محمد محمد الشناوى» أستاذ اللغة والنحو والنصوص، ووقف يقرأ صامتًا ما وجده على السبورة، سأل : من كتب هذا؟ غصت فى جسدى مختنقًا بخليط من الزهو والخوف وانتظار حكم الإعدام، سأل مرة أخرى، ولما لم يجبه أحد معترفًا، مسح السبورة وكأنه يزيل فلذة من كيانى المحموم.

اختليت بالأستاذ بعد الدرس وقلت له: أنا كاتب ما قرأت على السبورة، فقبض على ذراعى بقوة وقال : أنت؟ أنت؟ قلت : نعم، نظر إلى بوجهه المشرق الفتى ونظارته الذهبية الشفافة، بلثغته العذبة وأستاذيته الرصينة قال : أنت موهوب.. وإياك أن تضيع نفسك فى مهنة التدريس الخاملة وتكتفى بشهادتك، لابد أن تنتظم فى الدراسة الجامعية وإلا قتلتك هذه المهنة.

قلت : حاضر يا أستاذ.

لم أستطع إكمال اليوم الدراسى وذهبت مسرعًا إلى الغرفة التى أسكنها مع خمسة من أبناء قريتى، فى البر الشرقى بشبين الكوم، وغرقت فى نوم أشبه بالموت، كان هو النوم الأخير قبل سهر الدهر، ومن يومها وأنا أركض ركض الوحش فى أروقة الكلام، تتقطر النار من هيولى الروح، وتتفصد أعضائى بالموسيقى ونشوة احتدام القصيدة.

٢٣ ـ مهد القصيدة

انتفضت مرتعدًا أشُد حرام الصوف على جسدى المتوقد بالحمى وعظامى تتفتت فى قبضة وحش من الثلج، كانت الملاريا قد عصفت بى بين الهلوسة والإفاقة المتقطعة، وحين قرأت بصوت عال اسم الدواء الكريه «كينالاييس الحديدية» هز أبى رأسه وقال : هذا ليس ابن دنيا.. عوضى على الله، أما أمى فقد أخرسها الهلع.

فى لحظة إفاقة من «خطفة» الحمى، سمعت أمى تغنى غناءها العذب الذى يقطر حنانًا ودمعًا، وهى تهدهدنى، وأدهشتنى أغنية تغنيها بطريقة عجيبة لم أسمعها من قبل:

إذا كشف الز / مان لك الـ/ قناعا

ومد إليـ/ك صرف الدهـ/ر باعا

فلا تخش الـ/ منية واقـ/ تحمها

ولا تخش الـ/ مرابع والـ/ يفاعا

وسيفى كا/ ن دلال الـ/ منايا

وخاض غما/ رها وشرى/ وباعا.. إلخ.

حين دخلت حجرة الدراسة بعد انقطاعى بسبب الحمى، انتهزت لحظة سكون ورفعت صوتى عاليًا بما حفظت من الأغنية، أتلوها غناء وبنفس طريقة أمى، فأسرع إلىَّ مدرسان يستطلعان الأمر، وقد وقفا صامتين حتى انتهيت، وسألانى : من حفَّظك هذا؟ قلت : أمى فأخذانى إلى ناظر المدرسة وبقية المدرسين، أغنى وأعيد الغناء وهم فى غاية الدهشة، وكلما جاء زائر أو مفتش كنت جزءًا لا غنى عنه فى مشاهد الاستعراض والإدهاش، وبالأخص بعد أن حفظتنى أمى أغنيتين أخريين عرفت بعد ذلك أن إحداهما من شعر شوقى فى الحيوان والأخرى لباحثة البادية «ملك حفنى ناصف».

كنت لا أفهم أكثر الألفاظ، وكان ذلك من عوامل السحر فى الغناء، كأننى أتلو موسيقى مجردة أو صوتيات خالصة امتلأت بالإحساس الجسدى بالإيقاع، بأنواع التقابلات والتوازيات والتوليفات المتوافقة فى كل شىء، حسًا جسديًا يهز كيانى ويدفع الدموع إلى عينى، ورحم الله زمن الصبا حين كان الدمع ينهمرلسماع صوت الشيخ رفعت أو أسمهان أو عبدالوهاب، مهما يكن مضمون ما أسمع، ومهما يتراوح بين بهجة الوعد وغلظة الوعيد وغبطة الحب

وشجن الترجيع، وهذا الإحساس الجسدى بالإيقاع ونفاذ الصوت ورد الفعل بالدموع كانا يدفعان بى أحيانًا إلى الرعب من توقف القلب وتآكل الأحشاء حينما أسمع صوت الساكسفون وآلات النفخ والطبول ورعشة المعدن فى الصنوج مع نقرات الرقوق والدفوف، وكم مسحت القرى على قدمى وراء ليالى الشاعر فتحى سليمان وصهللة عبدالعاطى خمرة، وقد كنت أبرع من يصنع الأرغول والمزمار من البوص، مع الملاحظة الدقيقة لرقة الريشة فى «البلوص» والمسافات بين الثقوب ونعومة تشطيبها، حاولت صناعة الربابات بعلب الصفيح أو الطبول «المقشوطة» وجلود الأرانب وأوتار الشعر من ذيل الخيول.

كان كل ذلك يستقطب ويستصفى ويتقطر شيئًا فشيئًا ويعلو فى طبقات من التجريد ليصل إلى أعظم الموسيقات فى الجبر وهندسة إقليدس ومبادئ علم الفلك، كان المايسترو الفذ «صلاح أبو علم» مدرس الرياضة فى منوف الثانوية تتنزل على شفتيه التعريفات والمعطيات والبراهين، ويخط الرموز والأشكال والفروض، وهو بقامته الفارعة وفمه الواسع الملىء بالأسنان وصوته العميق، يكشف لمحات من الهارمونية العجيبة فى معزوفة العلاقات والتوافقات الرياضية المحكمة، ويقدم من كبار العازفين إقليدس وأبولونيوس وفيثاغورث والخوارزمى وجاليليو والبتانى والحسن بن الهيثم وكبلر.. وبقية العازفين الكبار،

فتتندى عيناى بالدمع، ويتشكل اليقين الراسخ بأن الكون معزوفة أو جملة موسيقية واحدة تحكم نغماتها صرامة الرياضيات العليا الشاملة.

٢٤ ـ السيرة الذاتية لأنبياء المعدن المصطفى

كان الحديث بين الرجال عن الأسلحة وأنواعها وأثمانها يغمرنى بغبطة مجهولة ورغبة فى التكرار لا تشبع، وكانت أسماء المقروطة والفرد والجوز والفرفر أبو مشط وأم روحين وذات الساقية والميزر.. أسماء كائنات خلابة من المعدن وكعوب الخشب اللامع، تسبح فى هيولى من جسارة القلب وشرف الوقوف ضد الظلم والشر ودهاء الخيانة المباغتة، وكانت طرق إخفائها عالمًا معقدًا من الذكاء ورهافة الملاحظة واللعب بالأعصاب ودقة المخاطرة.

لم يكن أبى يحب الخوض فى هذه الأحاديث، بل كان يصرف مجالسيه عنها بغلظة، ويقول دائمًا : سلاح الرجل علمه وخلقه، ولكنى فوجئت به ذات يوم يقول لأحد أصدقائه وهو يفرد قطعة من القماش ويفتح كيسًا ليخرج منه مسدسًا فى غاية الرشاقة والأناقة : براونج.. لا أفرط فيه بأقل من عشرين

جنيهًا.. وحينما رآنى أسترق السمع وقد تعلقت عيناى بالساحر المعدنى النائم على قطعة القماش صرخ بفزع ليطردنى بعيدًا..

كنت أعرف الأخطار المحيطة بأبى، وأتابع بشغف وزهو وقائع وأقاصيص صراعه ضد عمدة القرية وعائلته التى تفرض بطشها وتسلط عنجهيتها وبالأخص عندما صاهر أحد وزراء حزب الوفد وتحالف مع كبار الملاك فى المنطقة كانت ساحة الصراع هى المحاكم والنيابة، وكان السلاح عددًا لا يحصى من العرائض والشكاوى وتجميع الأدلة وتكتيل الشهود ومقاومة الترهيب والترغيب، وكان بيتنا مزارًا دائمًا لزوار الفجر، إرهابًا وترويعًا وتفتيشًا عن السلاح، حتى تلقى أبى تهديدًا بالقتل، فلم يجد مناصًا من شراء مسدسه هذا.. فكيف أراه اليوم يعرضه للبيع مهما تكن الضرورة؟!!

فسرت الأمر بأن انتصاره فى المعركة وشيك، وبالأخص حينما انتشرت فى القرية أخبار الواقعة التى أذهلت الجميع بإثارتها الضاحكة فقد كانت آخر العرائض والشكاوى طعنًا فى اللياقة الصحية للعمدة ونفى قدرته على القيام بمهام المنصب، ذلك لأنه أعمى، فقد كتب وحشد شهوده بأن العمدة قد ألقى السلام على حمار ظنه رجلاً، ويطلب إجراء الفحص الطبى له، قدم عشرات الصور من العريضة إلى النيابة والداخلية ورئاسة الوزراء والديوان الملكى..

إلخ. فهاجت الدنيا، وجاءت حكومة السعديين فوضعت قوتها ضد العمدة الوفدى، وبعد وقت قصير كان النصر النهائى لأبى وانتقال السلاحليك والتليفون ومنصب العمدة إلى بيت عمى.. لكنى ظللت متهوسًا برشاقة السلاح وأشكاله، أشبه المرأة الجميلة بالبلطة، ورشاقة الرقص ولعب العصا بالخنجر، وولادة النساء بطلقات الرصاص.

وحين وقع بين يدى أطلس كيمبردج التاريخى واستغرقنى تأمل حركة التاريخ على أديم الأرض ومسطحات الماء، وهى منسوجة بألوان وخطوط الممالك والدول والإمبراطوريات منذ أقدم العصور، هالنى أن أرى رؤية العين حركة التمدد والانداح التوسعى وحركة الانكماش والانحسار والاضمحلال، حركة المد والجزر وقيام وسقوط الحضارات، فكأنى أسمع صخب الكون بالحياة والموت منفجرًا من صليل السيوف وزفيف الرياح بالحراب والسهام وخفقات الأعلام على صوارى السفن والأساطيل.

كنت أقلب صفحات الأطلس العجيب فأسمع وأرى وقائع السيرة الذاتية للأسلحة.. أعجب السير الذاتية على الإطلاق، وأتساءل بانبهار الحيرة: من يخلق الآخر ويقوده.. السلاح أم الإنسان؟! وكلما رأيت وسمعت أهوال الانحسار والابتلاع المتبادلين وانتقال الخطوط والألوان فى دوى الانتصارات والهزائم، ازددت يقينًا من أن الأرض ذات قلب ورئتين، تنبض

وتشهق وتزفر فى أحوال من القبض والبسط العجيبين المنضبطين على إيقاع الأسلحة وضربات القرار والجواب فى موسيقى التهليل بالنصر والأنين الدامى بالهزيمة.

كان دمى يغلى وتضطرب وتجيش أفكارى بهيجاناتها الحائرة وأنا أكتشف ارتباط الحرية والعدل فى قسمة خيرات الأرض وكرامة الإنسان أفرادًا وشعوبًا وأممًا، بالحرية والعدل والكرامة فى امتلاك السلاح، ارتباط العلة بالمعلول، واكتشف أن مواقع الأفراد والشعوب والأمم على سلم المعرفة والحضارة والديمقراطية إنما تتحدد حسب مواقعها من أعماق السيرة الذاتية للسلاح، اختراعًا وصناعة وامتلاكًا وعدل شيوع، وحيثما تجذر الطغيان والانحطاط دل ذلك على وقوع السلاح فى قبضة الاحتكار ولا عقلانية الصفقات السرية والقتل المأجور والارتزاق بتجارة الدم والهزائم الشاملة، وساعتها تتغير الخرائط وتنبض الأرض وتشهق وتزفر بانتقال التخوم وحركة الحياة والموت بين قبض وبسط.

كنت أقلب صفحات الأطلس العجيب، ومع ذلك فإننى لم أكتشف زيف الدعوة مدفوعة الأجر والتى زحمت أجواء الثقافة والكتابة بسطوة نفوذها باسم «أنصار السلام»، وشيوع المصطلح الذى كان يرد دائمًا هكذا «السلم والسلم العالمى»، وكانت قصائدى المبكرة الأولى هراء يعيد إنتاج الهراء، وكانت أولى قصائدى

التفعيلية الطويلة بعنوان: «أريد السلام»، بينما أضحك ساخرًا من برتراند راسل وأنا أقرأ دعوته ضد الحرب ودعوته للحكومة العالمية.

كان غليان دمى واضطراب وهيجانات أفكارى قد خنقت مراهقتى وحاصرت خطواتى الأولى، وما كدت أسأل نفسى : السلام بين من ومن؟! ومع من ضد من؟! وأنت - أيها الشاعر التافه - لا تملك فى الحرب أو السلام فى العالم عيرًا أو نفيرًا!! لقد باع أبوك مسدسه بعشرين جنيهًا.. فبكم، ولقاء أى شىء تخلت شعوب وأمم عن سلاحها وباعت ملمس المعدن المصطفى؟! حتى انقشعت الغمة، وبدأت خطوة من الانشقاق الجميل وإزاحة ذباب الغوغائية، وقلت لنفسى : اغرس خطوتك فى عتبة بيتك، وأزح عن رأسك قتامة السقف الذى ضفرته سلطة نص شائع واستضئ بشمسك أنت..

٢٥ ـ سُفليات الغرائب

كـان أصـفـر الـوجـه ممصـوص الجـسـد، فـيَّاض المـرح والضحك، فقيرًا رثـًا مثلنا جميعًا، وعرفنا عنه ـ بغموض وريبة ـ أنه وجد فى ميراث جده كتابًا مغربيًا قـديمًا يسـتطيع باتبـاع تعـاليـمه أن يسـتـحضـر الجن ويأتى بالمعجـزات وغـرائب التـحكم فى مصـائر البشـر من إبطال السـحـر وفك المربوطين وربط العـشـاق والكشف عن مثوى المسروقات وتقليب أحوال القلوب.

كنا نسـخـر منه سـخـرية الخـوف والميل إلـى التـصـديق، كـان كل منـا يود لو اسـتـخلصـه صـديقًا منفـردًا يفضـى إليه بأسـرار مـغامـراته الليلية مع الجن وعـجـائب العـالم السـفلى، وكـان السـؤال الملح الذى يسمعه ولا يرد بجواب : هل حقًا تتوضأ باللبن وتلبس فى قدميك رغيفين ساخنين من أرغفة القمح؟! أو: ما الحبر الزفر والزعفران ودم الهدهد وجلد الغزال ومن أين تأتى بهذه الأشياء؟!

أثار فضولنا المرتعد المتخبط بين الشك واليقين، وبدأت شهرته تنتشر ونحن نتحداه ـ عطشًا لتصديقه ـ أن يغير من أحوال نفسه فيلبس الحرير أو تمتلئ جيوبه بالنقود أو يعرف أسئلة الامتحانات حتى يغلب خيبته فى الدراسة وهو يروغ منا بهمهمات غامضة عن المسموح به وغير المسموح، وعن درجات الترقى فى سلم الاندماج مع أهل الأرض وساكنى الخرائب وآكلى عظام الموتى.

كنت أعرف مما أسمع من أمى وغيرها أن هناك كتبًا «تنقل الحيط على الحيط» وتربط الرجال وتطمس معالم الأنوثة فى النساء، وأن هناك من كتابات السحر ما ينقش على الورق وينقع فى الماء فيشرب أو يرش على الأعتاب أو يوضع فى أماكن خاصة، وما يكتب على القراميط لتسرح بالسحر فى المياه فلا يبطل، وإذًا فإن أقاصيص زميلنا تمتلك شبهة الصدق وإمكان التصديق.

انفردت به وقلت له: أريد أن أقرأ الكتاب المغربى وأن تعلمنى السحر وتحضير الجن وكتابة التعاويذ.

قال وهو يفتر عن ابتسامة صفراء تكشف أسنانه المتآكلة : هل تقدر على أول اختبار؟! قلت : جربنى.

قال : تأخذ قطعة من قماش الحرير الأخضر، وتذهب إلى المقابر قبل الفجر، وتختار مقبرة متهدمة تنزع منها قالبًا من الطوب وأنت تقرأ ما سوف أحفظك إياه، وتقول : «تعال يا زعزع»، وتأتى به قبل الفجر.

قلت : ثم؟! قال : سوف يبكى قالب الطوب بصوت طفل مفزوع عندما يؤذن الفجر ويقول : أرجعنى إلى أمى، فتقول له: لا أعيدك إليها إلا إذا أتيت بفلانة، وعلى الفور ستسمع دقاتها على الباب، تفتح الباب فتدخل من طلبتها مسلوبة الوعى والإرادة، فتفعل بها ما تشاء.

سألته: وقالب الطوب؟! قال : تحتفظ به ملفوفًا فى قطعة الحرير، تأمره بالسكوت فيسكت، وبعد كل فجر سوف يبكى ليعود إلى أمه فتطلب منه الإتيان بمن تشاء من عذارى القرية ونسائها، وإذا أردت التخلص من القالب فعليك أن تذهب به قبل الفجر لتضعه فى مكانه من المقبرة المتهدمة، إياك أن ترمى به كيفما اتفق، وإلا أصابك مالا قِبَلَ لك به.

كان يحدثنى وهو ينظر فى عينى، أكاد أسمع صوت الدم فى عروقى، وركبتاى ترتعشان من هول التجربة، وتعصف بى خيالات من أهوال الظلام فى المقابر وبكاء قالب الطوب وعنفوان القدرة على امتلاك مصائر البشر.

قال لى وهو يحدق فى عينى : مالك.. اصفرَّ وجهك، ألم أقل لك أن الاختبار صعب؟!

انتشرت حكاياته، وتناقل الصغار والكبار قصص عجائبه، وبدأت تظهر عليه دلائل الاكتئاب والشرود والصمت الطويل، وفتح أبوه ـ فراش المدرسة ـ البيت لأصحاب الحاجات وطالبى «الأعمال» من الرجال

والنساء، وفوجئنا به ينقطع عن الدراسة تمامًا سمعنا بمرضه وموته السريع المباغت، وقيل لنا إنه فى جلسة تحضير الجن، انشغل بالجمال الباهر لإحدى الجنيات فلم يستطع تذكر التعزيم الذى يصرفها به، فمسحت وجهه بمنديلها المنسوج من الحرير والنار، فمات..

٢٦ ـ غصة البدد

هاجس من قلق الشك وخوف اليقين كان يعصف بى وأنا أسرع صاعدًا السلم الطينى فى وثبات محمومة.. هل بقيت لفافة القماش فى موضعها.. هل بليت كما تبلى الأكفان؟ وهل اندثر الحرز العجيب ترابًا فى الريح؟ كنت قد غبت عن بيتنا سنوات لا تحصى، غريبًا فى الوطن ومواطنًا فى الغربة، وخلا البيت من سكانه جميعًا بالزواج أو الموت أو العجز على سرير المستشفى، وأصبح خرابًا لا تسكنه إلا ذكرياتنا وأشباحنا مع بصيص انتظار يشيخ بلا أمل.

فى لفتة واحدة كنت أرى المشهد الذى لازمنى طوال العمر باعتباره تشخيصًا مجسدًا لمعنى كلمة «الخير» ومفهوم «الأيدى المباركة» وحقيقة «صنع الحياة».. فالخيوط المدلاة على الحائط وقد انتظمت عقودًا من البامية الناشفة، وباقات الثوم والبصل وقد بقيت هياكلها الفارغة، وأكياس الملوخية المجففة وقد

علاها التراب، وبقايا القمح والذرة فى المخزنين العجيبين اللذين أقامتهما أمى فوق السطح من الطين المقوى بروث الماشية وانتظمت فى صناعتهما ثقوب التهوية، وبقايا تراب الفرن الناعم الذى يخلط به القمح فلا يقربه السوس..

امتلأت عيناى بالدموع وأنا أشهق، يرعى الله أزمنة الكدح النبيل وفيض الخير بين الأيدى المباركة!! تحسست طريقى بين الجرار المكسورة وبلاليص الجبن والمش التى جفت وتحجر ما فيها، وإن كانت رائحتها لاتزال يتحلب لها الريق، ونظرت إلى الشق العريض العميق فى الحائط الغربى أبحث عن لفافة القماش التى أحكمتها أمى بخيوط الدوبارة وسدت بها الشق وغطتها بالطين، حرزًا عجيبًا يستجلب الخير ويدفع شبح الموت.

كان ذلك منذ نصف قرن، وقد جلست أمى على بسطة السلم الطينى وبين يديها قطعة قماش تلف بها ذلك الحرز العجيب.. قالت لى: «لقد أجهضت ليلة أمس وأنتم نائمون.. كان «السقط» ولدًا، عيناه رائقتان كعين الديك، وشعره أسود فاحم يتدلى على وجهه كالقمر، ولحمه شفاف كالزجاج تظهر منه عظامه كأسلاك الفضة» كانت كأنها تحدث نفسها بين النوم واليقظة، واستولى علىَّ الرعب فأمسكت بيدى، قالت: يعز علىَّ أن أدفنه فى الأرض، لقد سددت فمها بما دفنت من أبناء، أما هذا فسأجعله حرزًا و

«تحويطة»، سألفه وأضعه فى شق الحائط الغربى، وأكسو الشق بالطين، وهو الذى سيجلب البركة ويملأ عين الموت فلا يطيف بنا بعد اليوم.

ومن هول الرعب خرجت أجرى، كانت الغيطان تحت شمس الصيف تفور بخضرة الذرة والقطن وأنين السواقى، وخيل لى أن الأرض كلها حصان فتى جامح بالخصوبة، لكن حافره أصاب أمى فأجهضها.

حين أخذت طريقى إلى موضع الشق، لم أجد اللفافة التى ظلت فى مكانها أزمنة متطاولة، كنت أشهق وأسأل نفسى : هل بلى الحرز وبددته الريح فحل بالبيت الخراب!!.

٢٧ . العوَّامون

للمصريين وطن آخر، يموج بالرموز والمعانى، ويحتشد بسكانه السفليين المنفلتين من ربقة الفهم وضرورات العادة ومستقرات التعليل، هو وطن الضد والخيال والحرية، وهو وطن الصدفة العمياء، وجمال الشر، وعشوائية الأرزاق بهبات العشق الممسوس أو الخيال المقتدر على شق الحجب ومعرفة المغيبات، أو شفافية الأجساد المسكونة والأرواح المتحولة والمخلوقات المهجنة، وطن تعنى فيه عقدة الحبل أو تشابك أطراف الخرقة أو عثرة القدم أو رش الماء فى الظلام أو الدخول المفاجئ إلى خلاء البيوت والطواحين وأماكن الراحة والاستحمام والمقابر آلاف المعانى والدلالات وآلاف التأثيرات والتحولات والعكوسات، وطن تستطيع الأجساد أن تتبادل الفعل والانفعال ـ على البعد ـ بالنوايا أو تخطى الأصول، بالمشاهرة ينضب لبن المرضع أو يمتنع الحمل لدخول

امــرأة، وبـالحــيض يجف النبــات والضــروع وينقطع الثـمـر، بـالجنابة يتـيبس الأخـضـر، وبغـيـر البـسـملة والحـوقلة تعـصف أهوال البـاطن بالظاهر ويخـتـرق الشفاف المعتم، وبطقوس الشبشبة من تعرية الفروج تحت النجوم ولطمها بالشبشب وحلب القمر كما تحلب البهائم تستطيع العجائز إنزال أهوال التعذيب حـتى القـتل بالغـريمـات، وبالأخص إن كن شـابات جـمـيـلات على وشك الزواج وتذوق عـسـيلة الرهز والهنك والرنك، هـو وطن لا يعـرفـه أحـد إلا عّرافـوه ومـالكو أسـراره وأطبـاؤه وأصـحـاب الحظوة عند أهله السفليين، وهو الوطن الوحـيـد الذى أبقى أجـيـال المصـريين تتناسل ويزدحم بهـا المكان وتتـدافع بهـا الأزمنة، وهل كان ممكنًا أن يحتمل أى شعب فى العالم مذلة الصبر على الطغيان والهوان والهزائم، وهل كان ممكنًا هذا الطفح البهيج من المرح بالنكتة والقفشة ولاذع القافية الساخرة وبرطعة المهارشات الضاحكة فى قلب الخراب والقهر والأمية ووحشية العراتب الجهنمى للتسلط والقمع واحتكار الحياة إلا بهذا الوطن السرى البديل،بدوامه ورسوخه وانفلاته الحر!!

وهو وطن حر منفلت فى فضاءات الخيال والشبق والإرادة والإنســان المطلق، فلم يسـتطع خـدشـه أو تشـويهـه انعـدام الأخـلاق بين المثـقـفـين، ولم تـزلـزل هياكله خيانات المتعلمين المنهزمين، ولم يلن بالخنوع والخضـوع أمـام عـسـف الطغـاة والمتـسـلطين الصـغـار والكبـار، ولم تهتك أسـراره جـمـاعـات ولا صـحـف، ولا

ثرثرة، وهو يتجلى بخفائه ورسوخه المقاوم فى كل شىء وعلى الرغم من كل شىء.

كانت أول ثغرة ضيقة فى جدار هذا الوطن العجيب أطل منها على مناخاته السرية فى زمن الطفولة البادئة بمحض المصادفة.. ففى حاكورتنا الضيقة المتعرجة يقع بيت خليفة جمعة، طبال القرية، ومعه جوقته الفقيرة قليلة العدد: سبسب أو أرغول مع على الظربى ومزمار مع طلبة أو عبدالسلام أو غيرهما ورقٌ ذو شخاليل من النحاس الأصفر ومغنون يتبدلون.

بعد صلاة الجمعة مباشرة تبدأ وفود النساء. شابات وعجائز ومثنى وثلاث تتوافد وتسبقهن أنسام معطرة بفاقع العطر الحريمى الرخيص، وتحت أثوابهن القطنية ورمش العين والساتان الأسود تلمع أطراف القمصان الحريرية المزركشة الشفافة، وفى أكفهن وأطراف أصابعهن وكعوب أقدامهن بقع الحناء الوردية والداكنة، ومن بيت خليفة جمعة تبدأ أنغام الزار فى التصاعد وتسارع الإيقاعات، ومع غناء شجى لا أميز فيه إلا: «يا سفينة البحر يا عوامة».

كان أبى يمنعنى بعنف من مقاربة البيت أو استراق السمع والنظر، ويردد على سمعى أبياتًا من الشعر فى ذم الزار وأهله لا أذكر منها إلا شطرة تقول: «لماذا الزار لم يأت النصارى»، وكانت أمى ترددها كذلك.

ثقل عليّ الفضول واستبدت بي الرغبة في اكتشاف ما يدور في بيت خليفة جمعة، حتى استطعت الإفلات من المراقبة الصارمة، ودخلت وراء امرأة قبل إغلاق الباب، فأخذتني رعدة الدهشة بما أرى:

النساء - شابات وعجائز - خلعن أثوابهن السود عن قمصان حريرية ملونة شفافة تكشف كل الجسد، وانتظمن في دائرة وهن يرقصن ويتمايلن مغمضات الأعين، ورءوسهن تتمايل عكس حركة أجسادهن، ومن انهكها الرقص انحرفت عن مسار الدائرة ودخلت إلى قلبها وجلست ترقص وهي تطوح بيديها وجسدها كمن تعجن أو تحتضن الأشباح، بعضهن يتنهد بصوت عال منغوم، وبعضهن يشهق بالبكاء، وبعض أفراد الجوقة يسند المتهالكة أو يربت على الظهر أو الوجه.

كنت منزويًا في الركن أكاد أختنق بالإيقاعات والروائح ووهج الألوان وفحيح الأجساد، حتى لمحني خليفة جمعة، فسارع بطردي وإغلاق الباب ورائي وأنا على وشك الإغماء.

وفي عصر الجمعة من كل أسبوع، ما أكاد أسمع: «يا سفينة البحر يا عوامة» حتى يتحول بيت خليفة جمعة إلى سفينة متألقة بالروائح والقمصان الشفافة وخفة الأجساد وهي تضطرب في صخب موج من الإيقاعات الرجراجة، وأرواح نساء ينفلتن من فظاظة التعبير الشائع «هن بلغة في قدم الرجل» إلى تخوم الوطن الآخر.

سألت أمى: لماذا تذهب النساء إلى الزار؟ قالت: دع الملك للمالك.

حين كبر ابن خليفة جمعة اكتشف أبوه أنه بلا موهبة ولا نفع منه فى مملكة السفينة العوامة، فأرسله ليعمل فراشًا فى مدرسة بالقاهرة، وكان يأتى بقامته الفارعة الهزيلة بين وقت وآخر، بجلبابه الأبيض وطاقيته المزهرة وحذائه اللامع، وفى ليلة من ليالى الصيف قدم لأبيه هدية من القاهرة، وما كاد أبوه يضع قدمه فى الحذاء الجديد حتى صرخ صرخة مدوية فأسرع إليه الجيران، وعرفنا أن الحذاء كانت به عقربة شرسة لدغته، قال قائل وهو يضحك: «خلّى العفاريت تنفعه»، وجاء أحد المشايخ يبصق على الجرح، ويضع قطعًا من لحم الحمام المذبوح ويتمتم بالتعاويذ ويمص مكان اللدغة، وشفى خليفة جمعة، ولكنه مات بعد أشهر قليلة، فانتقلت سفينة البحر العوامة إلى بيت على الظربى، ثم إلى بيت الشيخة عيشة، وكلما سمعت فجاجة العبارة المتطعة المتواطئة «عمار يا مصر» أو رأيت وسمعت مهارشة الانحطاط المثقف، انصرف سمعى ووعيى إلى «سفينة البحر العوامة».

٢٨ . جمرة لغسل الخطايا

آلهة بدائية قديمة طالعة من غرائز وأهوال الأمل ومغامرات القلب والعقل فى الظلمات،و تشخص تماثيلها وهياكلها من الحجر والمعدن والسطوح المحفورة بنقوش حياتها وطقوس مباذلها وتحولات قواها أو أفاعيلها وأفاعيل المتعبدين المتبتلين فى معابدها، بين أقصى الذوبان فى العشق وإشراقات المعرفة وأقصى عنفوان التضحية بالنفس وغسل الخطايا بالدم.

كنت أنقل نظراتى فى المتحف بين المشاهد المنحوتة والمحفورة حتى وقعت عيناى على أسراب الجميلات الفاتنات وقد تهتكن فى ابتذالهن العريان، سألت فعرفت أنهن عذارى المعبد.

كن يأتين من بين أحضان أمهاتهن وآبائهن عذراوات لم يمسسهن رجل، ليكن نذورًا وتقدمات

مقدسة للآلهة، يملأن باحات المعابد ومقاصيرها بأجسادهن الممسوحة بالطيب وزيت النباتات العطرية، وتتكشف مفاتنهن تحت الحرير الشفاف والدانتيللا التى تعرى أكثر مما تستر. يتقلبن بين المخادع والأعتاب ومكامن الأسرار والطقوس كالغزالات النافرة والحمامات الوديعة، تتداولهن أحضان الرجال ويفترشهن من شاء كما شاء، وهن يقدمن أقصى ما يستطعن من تهتك وإغراء وملاعبة، فى عهر داعر عجيب هو عندهن كمال العبادة وآية التبتل ومقام الفناء فى الآلهة.

كان مرشد المتحف يشرح ويفسر، وكنت أعود بذاكرتى أبتعث من رماد صباى حكاية «خضرة» وبناتها:

كانت امرأة برزة مكشوفة الوجه متهجمة، تمتلك من الجمال الرصين والحضور الباهر والزينة الهفهافة ما تطيش به ألباب الرجال، لا ينغلق أمام بهائها ومهابتها العجيبة بيت ولا باب، ولا تند من أى أحد إشارة إدانة أو سخرية أو إهانة لما عرفت به من سلوك مستهجن مرفوض من غيرها رفض تقزز وتحريم، ما تكاد تهل بطلعتها الخمرية وعينيها اللتين يضحك كحلهما وتتفتر أجفانهما بالنوم الريان، وتمد أصابعها المثقلة بالخواتم والوشم إلى كتف أو صدر من تقتحم بيوتهم ومجالسهم، حتى تشرق الوجوه وتعلو تعليقات الترحيب والفرح من الرجال والنساء

بلا استثناء، حتى أعتى الوجوه صلابة ونفورًا وتجهم تقوى. أما بناتها فكن كدمى المرمر الوردى، لم نر من فاتنات السينما من يفوتهم جمالاً وفتنة، تزوجن من صعاليك القرية ومفاليكها، وشققن طرائقهن خفية إلى بوتقة الأم وتسللن إلى بعض البيوت بإغواءاتهن، وصرن بعض حديث النميمة والفضائح، وأما أبناء خضرة وإخوتها من الرجال، فقد صاروا، بشواربهم العالية المفتولة وأجسادهم العضلة المكتنزة وأصواتهم الصاخبة، أصحاب الفرزة الساهرة حتى الصباح، تدور فيها سحائب المعسل والحشيش وأكواب القرفة والشاى، وكثيرًا ما كان يتسلل الساهرون - وبالأخص الغرباء عن القرية - إلى وكر الأم القريب للمبيت.

دخلت «خضرة» زمن أفولها ببطء شديد، قل سرحانها بين البيوت والحارات، وهبطت على أبنائها وإخوتها وبناتها جهامة فقر وشحوب هوان وانكسار لا أدرى لها سببًا، ورأيتها مرات من فتحة بابها مهلهلة تتبدى وتلمع من فتوق ثيابها كنوز فتنة قديمة وأطلال جمال يأبى أن يزول.

كان بعض أهل القرية يرسلون إليها صدقات من مواسم الحصاد، وحين أرسلت حفيدتها الصغيرة، تسأل أمى طبقًا من الجبن القديم قالت: اذهبى وسأرسل به عبدالله، وحين دخلت بعد الغروب، رأيتها بثيابها المهلهلة وقد افترشت حصيرة قديمة مبقعة بالخروق والمزق، ومن حولها يتحلق عدد من ضباع الغرباء عن القرية، أطلال رجال حول أطلال امرأة.

حين رجعت إلى أمى ووصفت ما رأيت وأطلقت عبارات قاسية أصف سلوكها القديم ونهايتها المخزية، نهرتنى أمى بعنف وقالت: يا بنى لكل قرية نصيبها المقدور من الشر والنقمة، وكان بيتها هدفًا ظاهرًا يستقطب الوعيد والنذر، ويتلقى عن أهل القرية جميعًا ما هو مقدور ومكتوب من غضب وانتقام، وحين تسقط من أعالى السماء جمرة العقاب تتلقاها هى، جمالاً حارقًا وفاحشة مفضوحة وغرقًا فى الإثم، فتنجو القرية،، اللهم استر على ولايانا، فدع الملك للمالك، ولا تشغل نفسك إلا بشر نفسك، واستكثر من فعل الخير تكن من عيال الله وأحباب الناس.

٢٩ . فى معترك الأمناء

لم يستجب أحد من ساكنى الفيللا الأنيقة فى ١٣ شارع العجم بمصر الجديدة، وكررت المحاولة، ووقفت أستطلع، عساى ألمح حركة بالداخل لأعيد الضغط على جرس الباب..

مرت الدقائق متباطئة وأنا أتلفت حولى حتى فوجئت بسيارة تتوقف أمام الفيللا، وينزل منها الشيخ الجليل بسمته المعروفة:

العمامة المحبوكة والجبة الأنيقة المفتوحة على قميص وبنطلون، وفى قدميه صندل رومانى ذو أشرطة وأربطة من الجلد، وبدا فارعًا وسيمًا على وجهه أمارات المرح الصارم وفى عينيه ابتسامة مطمئنة، ومن مقعد السائق نزلت سيدة نساء مصر وكوكبهن الدرى، فى لمحة خاطفة، وأنا أنظر لوجه السيدة الجليلة بسمرته القمحية وما يبدو فيه من

عزم وبصيرة متوقدة وتقشف فيَّاض بمعانى الجهاد وكرامة الكدح، تذكرت قضاء صيف كامل على مدار الساقية وأنا أقرأ مقالاتها فى الهلال التى عرفتنى أول نشأة شعر التفعيلة على يدى نازك الملائكة وتجربة حياة نازك وديوانيها عاشقة الليل وشظايا ورماد،

وحتى أبرر وقوفى أمام باب الفيللا والسماح لى بالزيارة المفاجئة على غير موعد قلت: لقد أتيت من «شوشاى» فقال الشيخ: أهلاً وسهلاً تفحصتنى السيدة الجليلة بنظرة وسبقتنا إلى الدخول.

كان الشيخ الجليل قد نشر لى قليلاً من أكوام ما أرسلته إليه على مجلته «الأدب»، وفى ظنى أن هذا يشفع لى، بالإضافة إلى أن قريته «شوشاى» على قرب من قريتى.

وضع الشيخ عمامته على مكتبه ومن حولنا أكداس الكتب ورفوفها المثقلة، سألنى فحكيت، واستعرضت أمامه ما قرأت وما أقرأ، وكيف أعيش وما أدرس، حتى وصلت إلى سبب زيارتى فأفضيت إليه بلهفتى على نشر ما أرسله إليه، وهو يعلق بجملة هنا وتعليق هناك، يسوق نصائح الأستاذ الأب ويستنهض الهمة ويطلب الدأب والصبر ويبدى بعض الغضب إذ أقول له إن مبرر الصبر أن يكون ما ينشره أفضل مما أرسله إليه، ثم يتلطف ويفيض بالمرح السمح ويعدنى بانتظار لن يطول.

تقلبت على جمر التوقع والخيبة طيلة عامين كاملين، وفى نوبة من انفجارات غضبى الكاسح كتبت إلى الشيخ الجليل رسالة غضب وتحد وقطيعة، فنشر سطورًا منها فى بريد مجلته تحت عنوان: «أينا سينتصر».

قال السيد محمد عفيفى مطر من رسالة له: أما أنا يا صديقى ففى معركة هائلة ضد الريف فى نفسى.. أتشمم آثاره وأتابعها إلى أعماقى لأطهر نفسى منها.. لست أدعى ما ليس فى، بل يهمنى دائمًا أن أبحث عن الأشياء الحقيقية، فمنذ سنوات يا أخى والمهماز الملح يدمى قلبى والصوت الصادر من روحى يطاردنى هادرًا: إن معركتك أن تكون دمًا جديدًا وتيارًا حيًا.. وليس أمامك إلا أن تبحث عن قواك الحقيقة حتى لا يأخذك الوهم إلى التفتت تحت الضربات الهينة، واعلم جيدًا أن من تصدى إلى مثل ما أتصدى له فليستعد لسماع الكلمة التى تؤلم والنظرة التى تزدرى والحكم الذى يسوق إلى الموت أو ما هو أشد هولاً من الموت..

يا صديقى... لست رخوًا فأفرح لشىء، ولست خائفًا فأحس بالأمن لأن سطورًا لى تنشر، ولست ضعيفًا يلتمس القوة فى ظهور اسمى على الصفحات.. إنى أموت منذ سنوات فى سبيل الفن.. ولا يمكن أن أضيع هذه السنوات بالتهالك والتهافت..

واعلم جيدًا أن الميلاد لابد له من إخصاب وألم عظيمين.. إنى أريد أن أكون نسمة تحكى أسرار الأرض المجهولة، وموجة صغيرة تبوح بأعمق أسرار القاع، أريد أن أكون مجرى عميقًا، وإن كنت اليوم رافدًا تملؤه العكارة.. ففى الأفق سيتسع ويحفر له فى العميق سبيلاً.

وأقسم لك بهذه السنوات التى ذقت فيها كل ألوان الجوع والعرى، وذاب فى دمى خلالها كل ألوان العذاب والسم والغربة والهزيمة.. سوف أكون فنانًا يحمل أصباغًا جديدة، وشاعرًا يطلق أنغامًا خضراء رحيبة... وسوف أشد من روحى وترًا خصيبًا. ولن يستطيع شىء أن يئد هذه الإرادة الصادقة المخلصة، وإن كنت تملك مفتاح النشر.. فأنا أمتلك مفتاحًا أقوى.. العمل..

وهناك أمران تعتذر بهما دائمًا: الظروف.. المكان.. أما الظروف.. فهل لم تسمح لك الظروف أن تنشر شيئًا لى خلال العامين الماضيين؟ وأما المكان.. فهل يتسع لمثل شعر لو كنت غنيًا مثل «أبو رجيلة» ولا يتسع لقصيدة واحدة من الأربعين قصيدة التى أرسلتها لك منذ عامين؟

وفى رأيى أن المشكلة هى مشكلة المستوى.. والقضية الوحيدة التى يجب عليك أن تثيرها هى قضية المستوى. ولست أقصد بكلماتى هذه أن أستعديك على أحد أو أحرضك على شىء أو ألتمس

منك شيئًا.. كلا يا صديقى.. فما دمت لا تستطيع أن تمنعنى من الكتابة فأنت لا تستطيع أن تضرنى أو تنفعنى لا تستطيع أن تمنحنى الحياة أو تدفعنى إلى الموت.. فذلك أمر يقع عبؤه على قلمى وحده.. إن كان يستحق الحياة فسيحيا وإن كان ميتًا فلا راد له حياته..

وأرجو أن لا ترى فى قولى هذا غرورًا.. ولا تسىء بى الظن فمازلت طيبًا صادقًا ومخلصًا وأقسم لك..

ودعك يا صديقى من حكاية الناشئين والتشجيع والتنشيط فهذه أمور أخذت من وجهة خاطئة.. ففى إيمانى: إن كل فنان يعتبر ناشئًا ولو بلغت قدرته قدرة أساتذتنا الكبار.. أدباؤنا الكبار ناشئون وسيظلون ناشئين ماداموا أحياء، وذلك لأنهم يحاولون التحرك إلى أمام.. يحاولون أن يصلوا إلى أعمق وأروع مما وصلوا إليه،، هم ناشئون باعتبار غدهم ولا يوجد حد يفصل بين الناشئ وغير الناشئ، إلا الموت، فما دام الأديب حيًا.. فهناك إمكانية الهبوط والارتفاع والسمو والإعجاز.. والموت هو قمة النشوء المستمر للأديب وهو الحكم الأخير الذى يفصل بين الناشئ وغير الناشئ.. الموت الذى يهب الفنان قيمته.. وحكاية الناشئين بصورتها المعروفة تدليل سمج لضعف الضعفاء.

وفى نهاية هذا الحديث الذى ربما كان فارغًا أقول لك: مادمت لا تستطيع أن تمنعنى من الكتابة فسأكتب

بوهج أعصابى وأسفح دمى على الورق.. ومادام معك مفتاح النشر.. فاصنع ما تشاء.. وليمض كل منا فى طريقه حتى النهاية.. وسترى فى نهاية الأمر أيُنا سينتصر..

ولقد أعجبنى هذا التحدى الجرىء فتركت لصاحبه مفتاح النشر. وفتحت له باب البريد على مصراعيه وبكل سماحة أنشر ما وردنى فى صدر رسالته من نقد لما تنشره «الأدب» من شعر، إذ يقول: فأما الذى يحيرنى فهو الشعر الذى ينشره الأدب.. شعر: «ولو كنت غنيًا مثل «أبو رجيلة» وفى اليد اليمنى عصا غليظة ودفتر وتابع إلى اليسار، وأطلقت فى الجو زغرودات نينة، وأقبلت عروستى تجر أذيالاً حيية، وأسرفت فأعلنت حربًا وقدمت مطالبًا، ولم ترد مفاوضة.. لألتقى بزوجتى وارمة المحاجر، أثنيت عن جهودنا ولم أزل بقدرتى.. على التماس عذرها.. مرغبًا فى عشرتى.

و.. يا أخى إن قضباننا هشيم، وجلادنا ذو فؤاد سقيم، يا صديقى أهذا شعر؟ بل أهذا حتى مجرد كلام؟! فما الأعذار التى تعتذر بها عن نشر مثل هذه الركاكة و«الهيافة»؟ أى عذر تعتذر به عن نشر خمس صفحات كاملة من هذا السخف الذى تسميه شعرًا لإنسان واحد؟! ألم تك تعتذر إلىَّ بضيق المكان؟!

وإذا ما نشرت له كل هذا بالسماحة الوافرة فلعلى أجد عنده من السماحة ما يتسع به إلى كلمة صغيرة

لقد سمحت الظروف بنشر قطعة محتملة من قصيدة طويلة من القصائد الأربعين التى أرسلها فإذا كاتب عن أزمة الشعر الجديد يقول ما نصه:

«.. عدم فهم الكثير من الشعراء الجدد لمفهوم الواقعية، فهى تارة عكس فوتوغرافى للواقع كما فى هذا النموذج للشاعر محمد عفيفى مطر.. ويورد القطعة التى نشرتها لك «الأدب» ثم يعقب عليها بقوله: وهكذا يمضى الشاعر بآلة التصوير ناقلاً صورة قرية من خلال كوخ صغير، بشكل أمين على تفاصيل الواقع الجزئية.» فهل يفسح السيد مطر مجالاً لاختلاف التقدير؟ وهلا يعتدل فى الحكم فلا يرى ما نقده من الشعر لا يرتقى حتى إلى مجرد كلام، وأنه ركاكة، وأنه هيافة! وليس هنا مجال لموازنة أو مناقشة تفصيلية.

يا سيد مطر: إن تحديك قوى وأنا معجب به، راج أن ينتهى بك إلى ما تحب لنفسك، ويحب لك الفن ويعترف لك الناس به..

كان ذلك منذ ما يقارب الأربعين عامًا، وفى عنفوان ما أعرفه من طباعى الغلابة، قاطعت الشيخ الجليل الذى كنت مفتونًا به فلم أره بعد ذلك أبدًا، وقاطعت مجلته فلم أقرأ صفحة منها، وتربصت منتظرًا لحظة أواجهه فيها بأن أقدم له ديوانى الأول، معتذرًا عن الرعونة وجلافة القطيعة.

قال صديق كان يتردد على الشيخ الجليل: الشيخ أمين الخولى يسألنى عنك ويتابع خطاك، ويتذكر عنفوان تحديك الأهوج ويقول: يبدو أن هذا الولد سينجز ما يرجوه لنفسه، سألنى صديقى أن أذهب إليه، قلت: لم يئن الأوان بعد.

لقى الشيخ الجليل ربه بعد سنوات، فبكيت الأستاذ الرائد والأب السمح، ومن حسرة غيابه كنت أشهق: لم ينهزم ولم ينتصر أى منا، إنما هو النصال فى الجسد والروح تتكسر على النصال...

٣٠ . الغول.. إلى الأبد

للقطارات التى كنا نسافر بها فى الطفولة والصبا مكان فى الذاكرة لا يمحى ومذاق حنين لا يزول ودور فى تشكيل الوعى والحساسية الجمالية وإثارة الانتباه الثقافى لا يمكن تجاهله، ورحم الله تلك القطارات التى لم أشهد أجمل ولا أروع منها حيثما تنقلت فى ربوع الدنيا.

كنا نضبط عليها الساعات ونعرف قوميساريها وسائقيها وعطشجييها بالاسم، نتسرب من الدرجة الثالثة إلى الدرجتين الثانية والأولى خلال الممرات الجانبية، وندخل الدواوين ذات الأبواب الناعمة الإنزلاق، نتحسس الخشب البنى المخروق اللامع، ونتبادل الجلوس على الكراسى الجلدية الطرية التى نغوص فى ليونتها ومرونتها ورائحتها المميزة، فى كل ديوان مرآة صقيلة وعدد من الصور الكبيرة الرائعة المرتبة لمعالم الآثار المصرية من أقدم العصور حتى

زمانِنا، صور لا تتكرر وكأنها تقدم بانوراما شديدة الثراء لتاريخ مصر، وتعريف هذه المعالم والصروح والمعابد وتماثيل الملوك باللغتين العربية والإنجليزية، فى إطارات فخمة الزجاج لامعة الأفاريز. كنت أتسلل كل يوم فى الذهاب والإياب لأستمتع بهذا المتحف الجبار المتحرك، حتى ازدحمت مخيلتى واشتبك عقلى بأسئلة معنى التاريخ وغايات الإنسان ومفاهيم الدين والفن، وكانت هذه المتاحف أول وعى بالوطن وتراث وصراع الزمن وعبقرية الإبداع، حتى انتقلت إلى مدرسة منوف الثانوية، وكانت وراءها حديقة باهرة بها ناد وملعب للتنس . واختفت الآن وحل مكان قطيفة عشبها وأزهارها طفح المجارى وخوازيق الخرسانة وديناصورات الأسمنت . كنت أذهب إليها وأغفو أحيانًا تحت نخلها الملكى والمبوذيا والكافور الباسق المتهدل بخضرته الداكنة، وأقف متأملاً مسلة فرعونية صغيرة أقيمت فوق قاعدة من الرخام الأحمر، أتحسس بأصابعى رشاقة الأحرف المحفورة وزخارف اللوتس البارزة، وأتحسس الطيور والثعابين وسلال البشنين الساحرة، مرة بعد مرة أحدث نفسى عن الحاجز العجيب الذى يقف بينى وبين العالم الحجرى الناطق فى صمته الدهرى، حاجز الأبجدية الهيروغليفية .

كنت أعرف لمحة مما صنع شامبليون، ومن أين لى ما يعيننى على معرفة ما صنع بالتفصيل؟! قلت: وهل أنت أقل من شامبليون.. فلتحاول أنت اكتشاف ما اكتشف .

دخلت مكتبة المدرسة - التى لم أشاهد مثلها إلا مكتبة البلدية فى شبين الكوم، ورحم الله المكتبتين وتقدست كنوز أحبارهما وورقهما - وبحثت عما يضىء لى ظلمات الماضى العريق. فأمسكت يدا سليم حسن بتلابيب شغفى المتهوس وأحاطت بى مجلدات كتابه الموسوعى عن تاريخ مصر القديمة، ومثلما فعل شامبليون، حاولت فك طلاسم الخراطيش، التى تحوى أسماء الملوك والملكات وألقابهم الدينية والدنيوية، وأبحث عن الأحرف المتكررة لأستخلص لنفسى أبجدية هيروغليفية من اكتشافى، وأهلكتنى محاولة فهم الرموز والمخصصات والعلامات المحددات، حتى أصابنى الإعياء والإحباط والاكتئاب، والتهمت مجلدات الموسوعة وما وجدته، من كتب التراث الفرعونى حول الأساطير والدين والفنون وجوانب الحياة المختلفة عددا من السنين الخضر، مع المتابعة المتواترة بعد ذلك لكل جديد ينشر أو خبر كشف يذاع أو نظرية تفسير تبتدع، ولكننى كنت مندهشًا غاية الدهشة وأنا أشعر بدبيب فكرة تتنامى داخلى وتترسخ واضعة بينى وبين هذا المنجز الحضارى العظيم مسافة من الانفصال والمغايرة وعدم الاندماج أو الانتماء الروحى العميق، فكلما فكرت وأعدت صياغة المشهد الجبار تجلى لى غول متوحش لا يغالب ولا يقاوم، هو غول الآلة الجهنمية الباطشة بمنظومتها وتراتبها المتماسك وممارساتها التى لا تمت بصلة إلى الإنسان، غول آلة الدولة، وقد انتظمت

آلهتها الستة والأربعون فى دائرة كونية شاملة تتوسطها دائرة من تاسوع الآلهة، ويتوسطها أعتى ما تمخض عنه فكر بشر: «الملك - الإله، أو الإله المتجسد فى الملك» وما يتبع ذلك وينبع منه من تراتب مقلوب فى مملكة البشر. بالنزول من منزلة الإنسان الواحد الأحد إلى درجات الدرك الأسفل من كائنات الكدح والزرع والصيد والعمل، وكل خطوة ابتعاد عن مركز الدائرة هى خطوة إيغال فى العبودية والظلم والظلام ومصير الحيوان. لم يكن ممكنًا بناء الحضارة المصرية العظيمة إلا بتراكم وتنظيم المعرفة وقواعد الفنون والعلوم ومنظومة الأخلاق - أو ما سمى فيما بعد «فجر الضمير»، بأن يرتكز كل ذلك ويدور حول محور صلب من عقيدة البعث ومحكمة العدل المطلق بين يدى أوزوريس وميزانها، وريشتها التى تفضح الشر وتمنح الخلود الأبدى حسب معايير الطاعة والذوبان فى أوامر ونواهى الغول المتوحش، غول الدولة وملكها الإله، ويقوم جهاز عقائدى تعليمى إعلامى جبار بامتلاك عقول وقلوب وأرواح المصريين ومصائرهم فى الدنيا وفى العالم الآخر، تبدأ ساحته من «بيت الحياة» أو المدرسة، وهى جزء من المعبد، الذى هو جزء من القصر والرابط بين الأرض ومملكة السماء ومحكمة أوزوريس وحتمية الخلود الممتع البهيج أو الفناء والسقوط فى الظلمة الأبدية.

لقد اعتمدت هذه المنظومة على شرط معجز منعدم الأريحية والعدل، هو ضرورة الحفاظ على

جسد الميت بتحنيطه وضمان سلامته وتهيئة طعامه وشرابه وخدمة مباهج حياته الأخروية التى ستبعث معه حتى يمكن عبوره الآمن ـ عند عودة «الكا» أو الروح إلى أعضائه ـ إلى ساحات محكمة أوزوريس.

لم يكن التحنيط وإعداد الجسد والقبر المحكم ومباهج الحياة الأخروية من الأمور السهلة الرخيصة والمتاحة إلا لقلة من الصفوة الكهنوتية وحكام الأقاليم وأفراد البيت الملكى الإلهى وبعض المسئولين الكبار ممن يرضى عنهم الملك، وكنت أتصور نفسى مواطنًا فى دولة الأسر القديمة الأولى أو الرعامسة والتحامسة فيصيبنى الهلع والرعب، يقشعر جسدى ويقفُّ شعرى وأنا أسأل نفسى: هل كان ممكنًا أن تكدح طوال عمرك ـ بلقمة وفحل بصل ـ حتى تنال لقبًا مثل: الراعى المقدم لأوز ميدوم أو الحارس الملكى على غائط الكاهن الأعظم، أو العين الساهرة على شرج العجل المقدس أبيس، أو الأمين الملكى الصادق على غسل الأكواب وتخمير الجعة.. إلخ. هذا إذا كنت محظوظًا واستطعت الالتحاق ببيت الحياة وحفظت كتابات الجدران ومتون الأهرام وكتاب الموتى وتعاليم الحكماء.... وإلا .. ففى المستنقعات والحقول والصحراء ومحاجر الرخام ستكون حياتك الدامية.. قلتُ لنفسى: قد يكون ذلك محتملاً لو كان هناك أمل فى أن أنال نصيبًا من عدالة أوزوريس، ولكن التحنيط وإعداد الجسد والمقبرة ومباهج الحياة الأخروية من المستحيلات لك.. ويا آمون يا رع، يا أتون يا أى إله،

ويا إيزيس يا سخمت يا ماعت يا حتحور يا أى آلهة.. هل يستحيل العدل وجميل الجزاء والعزاء إلى هذا الحد! أأعبدكم وأو من بكم أعمق وأصدق الإيمان وأسعى طوال عمرى فى الدروب الصعبة لتكريس نفسى وحياتى لكم.. ثم أطرد وأحرم من البعث والقيامة فى مجدكم الخالد... بينما تمرح فى الخلود قطعان القطط والتماسيح والقرود والطيور المحنطة!!

كنت أتخيل مئات الأجيال وعشرات الألوف من العلماء والفلكيين والمهندسين العباقرة والأطباء والفنانين والمبدعين وملايين الفلاحين والفعلة فى كل ركن من الوادى، تخرج من أيديهم خيرات الأرض والصروح والمعابد والتماثيل وكتان الأكفان وأدوات التجميل والحلى الباهرة وتوابيت الرخام ونواويس المرمر ولفائف البردى.. الخ.، لتستمتع صفوة مرهفة ناعمة بلذائذ الدنيا وكدح العقول وفيض الدم، وبين أيديها من الكتابات والتواريخ والأناشيد والملاحم ومعجزات الفن صروح أخرى من عرق الكتبة الكذبة والكهان والفنانين والمنتفعين المتواطئين والحكماء البغاوات الذين يستخلصون جميعًا بالرعب أو بالمصلحة صورة مثالية ناصعة ينقشونها على الحجر وفى أوراق البردى... هى صورة ما يجب أن يكون فى العالم الأخروى. بينما تقف الرعية خارج العالم الحقيقى الوحيد ـ كما تنص العقيدة المحورية ـ لا تنال نصيبًا من عدل الحياة ولا عدل الموت، تعيش وتموت فى ركن أو حفرة أو مغارة أو مستنقع أو صحراء،

بأرغفة ثلاثة وفحل بصل فى اليوم، ولعل الإكرامية الكبرى أو هبة التقدير للمهندس العبقرى والعالم والفنان المبدع أن يضاف إلى «جرايته» بعض المش أو فصوص الثوم.

لم يكن احتمال ما كان واستمر دهورًا ممكنًا إلا بفرض أفترضه: لابد أن المصريين أنشأوا منظومة أخرى، بعيدًا عن أسماع الغول ونظره، غير مكتوبة ولا منقوشة ولا موثقة، يقيمون فيها معتقدًا ودينًا وآلهة ونظام قيم وسلوك وأخلاق وأسس عدالة دنيوية.. وأخروية ومسرد حكمة وأمثال، يستنقذون بها عقولهم وقلوبهم وأرواحهم ويؤسسون فيها منطقًا آخر للخلود وعدالة المصير، ولذلك فقد كانت تقوم الثورات والانتفاضات طوال تاريخ مصر القديمة، ينفجر فيها الشعب بمكبوتاته وأفراحه الفوضوية، ويحطم ما يقدر عليه من معابد وتماثيل وآلهة، وينهب المدافن ويفسد المنظومة خلود الطغاة بتمزيق المومياوات وسرقة الكنوز وتشويه الكتابات ومحوها، هذه المنظومة العقائدية التى افترضها، واللازمة بحكم منطق العقل وتمرده وحرية الروح، كانت تحيا على الشفاه ويتناقلها المصريون شفاهيًا ويخفونها فى أعماق القلوب والضمائر، ولم يكن ممكنًا تسجيلها أو توثيقها، على الرغم من أنها المنظومة هذه المنظومة الحية البديلة التى قاوموا بها عسف الغول الملكى المتأله وعنجهية القساة فرس ويونان وروما ن وبنزنطيين واستوعبوا بها ما تدفق من جاليات

المحتلين والعابرين المهاجرين التى كثرت وانتشرت بعقائدها المهجنة وتقاليدها وثقافتها ولغاتها.

حين أعطانى زميلى وصديقى المثقف «على محمد حفرج» كتابًا فخم الطباعة والصور عن الأساطير المصرية القديمة بالإنجليزية ومجلدًا يضم العهد الجديد بأناجيله وأعمال رسله، مما أضاء لى ضرورة هذه المنظومة المفترضة وترسخ وقوى إحساسى بها باعتبارها المعبر السهل والتفسير القريب لترحيب المصريين بالمسيحية واندفاعهم الجماعى لاعتناقها ثم اندفاعهم فى محو المنظومة الفرعونية وخروجهم لتحطيم المعابد والتماثيل وتغيير معالم القصور والمدافن، وطمس الكتابات والصور بالكشط أو التغطية بالجبس وتحويلها إلى كنائس وقلايات ومخابئ رهبنة وعبادة وفرار من طغيان الرومان واضطهادهم، كانت المسيحية ـ بما استبقت واستوعبت من المنظومة الشعبية الشفاهية (التى أفترضها) شرارة الحريق وكلمة السر، ولعلها من المرات النادرة فى التاريخ أن يخرج شعب لتحطيم ميراثه الحضارى وصروح مجده القديم بيده هو لا بأيدى أعدائه وغزاته، معتبرًا ذلك تحررًا وعدلاً ويقين خروج من الظلام والعسف واللامعقول إلى حرية الروح وفردية الضمير والمصير وانفتاح ملكوت الرب للمساكين والحزانى والجوعى والودعاء والمنكسرين، ولا شرط لدخول ملكوت الرب والقيامة فى مجده سوى الحب وترك ما لقيصر لقيصر وما لله

لله وانتساب البشر للأبوة الإلهية ويقين البعث والقيامة لكل فرد.

وحينما كنت أقرأ بعض وقائع الصراع القبطى ضد ثقافة وعقائد الوثنيين ومدرسة الإسكندرية والأفلاطونية المحدثة، وقد أخذت بمجامع قلبى مشاهد قتل وسحل الفيلسوفة الرقيقة «هيباتيا» فى شوارع الإسكندرية كنت أشعر بالأسى العميق لمصير الفيلسوفة وفجاجة التعصب وغلظة الخروج على المفاهيم العميقة للمسيحية، ولكننى فى نفس الوقت كنت أشعر بالتعاطف المتفهم والتماس الأعذار للجماهير الهائجة المندفعة فى فوضى تأكيد تحررها من كابوس التراث الفرعونى واليونانى والرومانى وتداعياته وذكرياته الدامية، ولولا ضخامة الهياكل والمعابد وصلابة التماثيل والصروح وضياع معالم المدافن والأبنية تحت الرمال وسوافى الأتربة وتراكم الأكوام ورواسب الطمى لدمر المصريون معالم الحضارة الفرعونية وبقايا أطلالها تحت معاول الهجوم القبطى وانتقام الكنيسة ونداءات البابوات البطاركة والمطارنة والرهبان هيجانات الفرح الفوضوى وبالخلاص.

ولقد تابعت الحوار الممتد والنقاش العريض حول هوية مصر وانتمائها وشخصيتها، وكان التطاوس المتطفل والتحليل المتنطع ولملمة البقايا المتحجرة التى لا يمكن إنجاز التقدم إلا بزوالها - من أسماء الشهور

أو الأشياء أوالعادات، وهى كلها منتزعة من سياقاتها ودلالاتها ومواضعها فى المنظومة الوحشية المندثرة ـ دليلاً وبرهانًا على فرعونيتها لحمًا ودمًا ومصيرًا، والدعوات العبثية لإحياء واسترداد مصر القديمة، مما يملؤنى دهشة وسخرية، فلو أن سلامة موسى ولويس عوض وغيرهما من المرضى والمتعصبين كانوا يملكون القدرة والفرصة لكانوا أول من يحمل المعاول لهدم ما بقى من مصر القديمة، ولكنى كنت أعرف مما أقرأ وأرى وأسمع من المدرسين والزملاء أن المسألة ليست مسألة مصر القديمة التى يستحيل إحياؤها واستردادها خارج منظومتها الكلية، وإنما المسألة هى القناع الصفيق الذى تستأنف من ورائه معركة أخرى مستحيلة لإيقاف عمرو بن العاص خارج الحدود وإنزال هزيمة ـ ولم تكن ـ به وإعادة تحصين الفرما وبلبيس وبقية القلاع والحصون والمدن.. وذلك محض خبل وجنون تعصب وقيح طائفية وعنصرية، كنت أقول لنفسى: إن دنيانا لا تكاد تحتمل بقايا أشباه الفراعنة وتتململ تحت بقايا ممارستهم وطقوس تألههم ـ من أصغر مرشد ومخبر حتى عتاة الديمقراطيين والمنتخبين والثوار والإنقلابيين والزعماء المعلمين الملهمين وظلال الله فى الأرض ـ فما بالكم بالمنظومة الفرعونية الكاملة!!

لقد امتلأت يقيناً بأن كفاح البشرية كلها يكاد ينحصر فى النضال ضد غول الدولة المتوحش وآلهتها الجهنمية وكُهانها المتمترسين لسرقة العقول والأرواح

والضمائر والمصائر فى الدنيا والآخرة بواسطة الجهاز العقائدى التعليمى الإعلامى الشرس، صانع التواريخ المزيفة ومدبج ما يمكن تسميته ـ مرة أخرى ـ بفجر الضمير أو ضحاه أو ظهيرته!! وإنه الكفاح والنضال ضد صفات الفرعونية فى كل شىء، فى السياسة والإدارة والحكم والتراتب الكونى والإنسانى حيثما وكيفما كانت هذه الصفات.. أما إحياء المعرفة والدراسة والكشف والصيانة، أما الاعتزاز بعظمتها واكتمالها، أما تأملها والانتفاع بأى عنصر من عناصرها، فإنى مستعد للموت فى سبيل ذلك، ولكننى مستعد للموت ألف مرة ضد الحياة فى إطارها ومنظومتها، وإحياؤها ـ على أى حال ـ مستحيل المستحيلات...

٣١ - سلالة النور

هى سلالة فذة، تكاد تكون جنسًا عجيبًا أو فئة من الناس بذاتها، ملأت ربوع مصر على امتداد القرن العشرين بنور المعرفة والثقافة والخلق الرفيع، وعلى أكتافها قام التحقيق المبكر لمفهوم العلم الشائع كالماء والهواء، وتوحيد معنى العلم والنور وتفتح الحياة بأصفى وأعمق ما فى تراث الأمة من خير وحق وجهاد، تقدم وتحريك للثوابت والرواكد فى معترك الحرية والعدل ومسئولية إعمار الأرض، وهى سلالة تكاد تكون أصل الضمير المصرى المعاصر وعلامة التأسيس لوطن يحاول الصحوة ويكابد أهوال الخروج من بطش الظلام والقهر وضياع الملامح وتعفن الهوية، وهى السلالة التى تركت من النور المشع فى الضمائر والعقول وحياة الريف المصرى ما لا يجارى ولا يتكرر، وهى السلالة التى كانت حياة الثقافة وجمهورها المستهلك ورافدها الذى يمدها بأجيال من المثقفين

والكُتَّاب والشعراء والصحفيين من أبنائها، تسمع من أفرادها كيف كانوا ـ وهم طلاب ـ ينتشرون فى شوارع القاهرة وغيرها من المدن بعد فجر الثلاثاء من كل أسبوع ليكونوا أول من يتلقف أعداد مجلة الرسالة فور صدورها، وتردد بينهم أسماء الأعلام من الكُتَّاب والمؤلفين والشعراء كأنهم بقية الأهل، وتمتلئ دورهم بالكتب والمجلات المختلفة فتلقفت أيدينا فى زمن الصبا مجلات الرسالة والثقافة والمقتطف والمجلة الجديدة ومجلتى والهلال وأبوللو، ومؤلفات توفيق الحكيم وطه حسين والعقاد وهيكل وأحمد الصاوى محمد والزيات وأحمد أمين، وهم أول من لبس الجلاليب البيضاء والطواقى «أم حيطة» وسط أهل القرى الذين شاعت بينهم الملابس الزرقاء والسوداء واللبدة وطواقى الصوف القاتمة كأنهم فى حداد الأبد، وكانوا يتميزون بكثرة الأولاد وشيوع النظام الحديدى والنظافة والنضارة فى بيوتهم وحياتهم، ومن الأمور العادية أن ترى فى بيت أحدهم عشرة من الأولاد والبنات الذين يشكلون كتيبة ثقافية مدهشة، وقد يكون فى البيت الواحد أربعة أو خمسة من أساتذة الجامعات أو عدد من الكُتَّاب والشعراء والصحفيين والإعلاميين، مجالسهم منتديات للحوار المثقف والنقاش الواسع المستنير والمحاكمات الذكية المرحة، أصحاب ذاكرة قوية مسعفة، ولا يكفون عن مشاغباتهم الدائمة فى التشيع للكُتَّاب أو الأحزاب أو المقرئين أو أصحاب الصوت الجميل، سهراتهم أُنس

مـهـذب ومـعـرفـة ومطارحـات للشـعـر لا تنفض، ومنافساتهم حادة عميقة فى إطار الأصول، وإن كانت محدودة بالدرجات والعلاوات والترقيات، ولكنها تكون ضـارية ممتـدة إذا تعلقت بأولادهم ومـسـتـوياتهم الدراسـيـة وتصـدرهم قـوائم التـرتيب فى النجـاح، ويميزهم عن أهل القرية أنهم أصحاب رواتب شهرية ثابتـة منتظمـة، مع الاهتـمـام الشـديد بأن يكونوا أصحاب نشاط اقتصادى ـ مهما يكن محدودًا ـ يملأ وقت الفراغ و«إن لم يغن ستر» فهم مزارعون وتجار ومربو ماشية، وكثرة الأولاد وقود للهمم ملتهب.

فى ضـحى كل يوم، ونحن صـبـيـة فى المدرسـة الإلزامية، كنا نرى الصينية النظيفة اللامعة يحملها إلى كل معلم منهم واحـد من أهله أو من التـلامـيـذ الكبار وقد غطتها قطعة من الشاش أو مفرش أو فـوطة شـديدة النظافـة ملونة، ومن تحـتـهـا البـيض المسلوق والجبن وحـبـات الزيتـون المتـوهـجـة بلونهـا الأسـود وطبق العـسل أو المربى وبراد الشـاى الأنيق والكوب وأرغـفـة القـمح أو المرحـرح المشطوح، يأكلون فى حجـرة الناظر أو أمامنا أحيانًا، وفى بيوتهم عرفنا لأول مـرة ذلك الخليط اللذيذ الملفـوف بورق العنب ومحشو الخضراوات من فلفل وطماطم وكوسة وبصل وبطاطس، والقلقـاس المطبـوخ بالسلق فكان يزداد إحساسنا باستحقاقهم الطبيعى للحياة المختلفة عن حياتنا الفقيرة ورثاثتها البائسة، فهم مخلوقون من طينة أخرى تخـمـرت بالعلم وعـجنت بنور المعـرفـة

والثقافة وسحر الكلام الجميل، وكم كان يذهلنا أن أبناءهم يتحرقون بالاشتهاء ويتحلب ريقهم لما نأكله من أرغفة الذرة المدهونة بالمش أو الجبن القديم أو الزبد المرشوش بالسكر أو الطبيخ القرديحى.

كان أفراد هذا الجنس من البشر، أو السلالة أو الفئة العجيبة، هم الذين يقومون بالتدريس فى المدارس الإلزامية بعد تخرجهم من مدارس المعلمين، وأشهرها مدرسة المعلمين فى إمبابة، وشروط التحاقهم بها تتلخص فى حفظ القرآن وبلوغ حد معين من علوم اللغة والحساب، وتكاد الدراسة خلال سنواتها الخمس تشبه فى صرامتها وكلاسيكيتها المدارس الداخلية الإنجليزية، مما يجعلهم يستوعبون فى السنوات الخمس العلوم الأساسية فى اللغة والرياضة والتاريخ ومجمل التراث الفقهى والأدبى مع العناية الفائقة بالنصوص الأساسية فى الثقافة العربية.

لقد بدأ انحسار هذه السلالة الفذة تحت الضربات الموجعة من الظلم الوظيفى ونزولهم تحت أدنى مستويات الدخل والسلم الوظيفى فى الحكومة والتجاهل السياسى المتعمد وتهميش وجودهم على جميع الأصعدة ـ وكم كان بشعًا أن تطلق عليهم صفة «المنسيين» ـ والاستيلاء النهائى على نشاطهم النقابى، وبدأ التفكك والانحلال بخضوعهم المطلق أمام تجارب التفكيك التربوى وإعادة الصياغة السلطوية الغاشمة

لمفاهيم التربية والتعليم ودورها فى صياغة المواطن من منظورات سياسية واجتماعية أقرب إلى مفاهيم الإعلام والدعاية وسرادقات الانتخابات والاستفتاءات، وفى ظل همجية الهدم وعشوائية التجديد والتجريب امتلأت مصر «بالواغش»، الجديد، عدو الكتب والقراءة، مثال السطحية والتفاهة والجهل، المنقطع تمامًا لأبشع التجارب خساسة ولؤمًا، ما بين آليات الدروس الخصوصية وشيوع الغش وبيع النجاح، وبين تجارة الإعارات ورشاوى العقود الشخصية وزمن الاستنزاف المبرمج، والتى تمخضت جميعًا عن كائنات معتمة تزهو بجلاليبها البيضاء وطواقيها الشبيكة وثرثرتها التافهة فى عورات المرأة وهوامش الدين وتوظيف الأموال، فيكاد المرء يتذكر كلما رأى واحدًا منهم أقوال الجاحظ فى معلمى الصبيان، هذا «الواغش» الذى اندحرت به الأمة قبل أن تندحر بأى شىء آخر، ولم يبق من تلك السلالة النبيلة الداثرة إلا بقايا ممن بلغت أعمارهم حدود المغيب.

لقد كان من يمن الطالع والحظ الحسن لجيلنا - فى القرى - أن تبدأ خطواته الأولى فى زمن هذه السلالة المباركة وتحت رعايتها وتوجيهها وتأثيرها المباشر وغير المباشر، وقد استلفت انتباهى المندهش واحد منهم، كان محمد أفندى قنديل ذا سمت وهندام يميزانه عن المدرسين وأهل القرية جميعًا، فالبيريه الكحلى وعصا المحلب الرفيعة ووجهه الأحمر الذى

تتبدى فيه شبكة معقدة من الشعيرات الدموية التى يكاد يقطر منها الدم، والبابيون الأحمر المنقوط بالأبيض أو الكحلى ونحافته الرقيقة الرشيقة، ولثغة الراء الخفيفة الخاطفة، وأرنبة أنفه المشرئبة فى كبرياء وتأفف، وعيناه الزرقاوان رقيقتا الجفون اللتان يشع منهما ذكاء به مكر وغضب واسترابة وسخرية، وطول صمته بين زملائه، ونوبات انفعاله الحاد إذا احتدم النقاش، كل ذلك جعله فى نظرى كائنًا مدهشًا، وكنا نعرف ما يشيع عنه من صرامة الجد وقسوة العقاب ولاذع السخرية.

كان من أصدقاء أبى، يتزاوران مع أصدقاء كثيرين، وهو الوحيد بينهم الذى يملك الحق فى أن يناوش أبى، وكثيرًا ما كنت أسمعه من بعيد وهو يسخر من أبى بعذوبة مناديًا إياه «يا أشكيف»، أو ملحًا فى دعوته: «يا أخى أطلع من هذه المغارة الخربة وابن لك بيتًا فى وسع الحقول».

اقتربت منه بحذر، ولم أنل حظ الجلوس أمامه فى المدرسة الإلزامية، ولكنه حين سمع أننى أقرأ وأكتب الأزجال والأشعار ونشرت شيئًا فى بعض المجلات أبدى اهتمامًا وتفحصتنى عيناه بفضول وترقب، سألنى عن قراءاتى، قال: هل تعرف الشقشقية؟ ونظر إلىَّ بذهول وأنا أسمعه مقاطع من خطبة الإمام على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه المعروفة باسم الشقشقية، سألنى عمن يعجبنى من الشعراء فعددت

الأسماء مع التعبير عن إعجابى الخاص بالشاعر محمود حسن اسماعيل، سألنى: هل تعرف قصيدة «نهر النسيان»؟ فأسمعته إياها كاملة عن ظهر قلب، وزاد انبهاره حين قلت إننى أحفظ ديوان «أين المفر» كاملاً، فدعانى لأول مرة أن نتمشى معًا على الطريق الزراعى الظليل وأخذ يحكى مأساة علاقته بالشعر:

أدرك منذ الصبا أنه عاشق للثقافة والقراءة والانحياز الخاص للشعر، ثم بدأت محاولاته التى نضجت سريعًا فأخذ ينشر قصائده فى مجلات ذاك الزمان البعيد، ولم يستطع الالتحاق بمدرسة دار العلوم، وهى التعليم العالى الوحيد الذى كان مسموحًا به آنذاك لخريجى مدارس المعلمين، واستقر مدرسًا بمدرسة القرية فهاله الركود وظلام الأمية وانعدام حيوية الروح ولم يجد ملاذًا سوى مكتبته، وماتت ابنته وزوجته الأولى، وتراكمت قصائده لتشكل ديوانًا ينتظر الطبع والنشر، وحينما انتقل من بيته الريفى القديم إلى بيته الجديد ركن صندوق أوراقه وأشعاره بضعة أيام، فظنت أمه أنه قد استغنى عما بالصندوق فجعلت من حصاد شبابه وقودًا فى جوف الفرن والكوانين، وحاول استعادة ما ضاع بالإلحاح على ذاكرته وذاكرة أصدقائه فلم يستطع إنقاذ شىء ذى قيمة، كانت ضربة قاصمة اعتصرته باليأس وانكسرت روحه بطغيان إحساسه العميق بلا جدوى، ثم هوت عليه كارثة أخرى بعد سنوات إذ ماتت ابنته

التى كان يرى حياته فيها وهى فى أول أعوام دراستها بكلية الزراعة، وأصبحت صلته بالثقافة والقراءة تذوى تحت ظروف العيش وتكاثر الأولاد والبنات، فانطفأت الموهبة بانطفاء البهجة والأمل، وتبددت المكتبة بين أبناء العائلة والأصدقاء.

صرنا صديقين وانمحت من بيننا فروق العمر ومهابة الأستاذ، وحلت محلها صلة عميقة من التعاطف المتبادل وندية الحوار والمشاكسة، وحين علم أنى تراجعت عن الصفوف الأولى فى مستوى الدراسة بسبب انشغالى بالقراءة والكتابة أخذ يحذرنى ويعنفنى بعتابه الغاضب ويردد على مسامعى، أن الشعر لا يطعم الخبز ولا يقيم الأود، ولا يرفع أسقفًا فوق البيوت، وأنا أقول له بل هو الحياة ذاتها ولا معنى للخبز أو البيت أو كنوز الدنيا فى غياب الشعر، فكان يحتدم الدم فى وجهه وتبرق عيناه فى غضب: ياابن الكلب ستضيع نفسك ويقتلك «الأشكيف»، فأطمئنه بقدرتى على استيعاب المناهج وهضمها فى عشرين يومًا.

لم يكن يعلم أنه يزلزلنى بالرعب الخلاق العجيب، رعب المصير المشابه والنهاية المماثلة للشاعر حين تخبو ناره المقدسة ويتحول جمر البهجة والأمل إلى رماد من السنين وحسرة الذكريات الضائعة، وهو الرعب من أن يمتلكنى شىء غير القصيدة وبهجة الأمل وحياة الكتب.

حين ذهبت إليه بعد ذلك بسنوات طويلة أخطب إليه ابنته، هرب الدم من وجهه وارتبكت حركته وهو يبحث عن علبة سجائره بينما السيجارة مشتعلة بين أصابعه، فهو فى حيرة عاصفة ما بين صداقة ممتدة يحرص عليها وبين خوف شديد على ابنته من مستقبل غامض تخيم عليه من التمرد والفقر وصلابة الإرادة ظلال مصير مجهول، قال: إن رضيت فبها وإلا فأنت ابنى وهى ابنتى، قال لها وألحَّ فى نصحها: هذا شاعر منشغل لا يمتلكه شيء سوى الشعر، عيناه نهمتان وروحه متقدة وحواسه لا تشبع ولا أمان معه، قالت: وأعرف أنه فقير متمرد قد يخرج من سجن إلى سجن، وأنه نذر حياته لما يؤمن به، وكنت أتمنى أن يختارنى، وأظنها ندمت ندمًا شديدًا وهى ترى نبوءاته تتحقق، فقد وصفتنى مرارًا بأنى بومة فى خراب الهزائم، وحصان الحرية الجموح فى برارى القهر والأهواء وصراحة الغضب واتقاد الحواس، وأن الدنيا أضيق من خطاى..

٣٢ ـ منـازلات

لم يكد عـمى يتـقلد منصب عـمـدة القـرية وتهـدأ الصراعات العـائلية القديمة حتى بدأ الطقس المصرى الأصـيل فى صناعـة الطاغـيـة والتـأسـيس لطغـيـان جـديد، حتى وإن كـان عـمـى رجـلاً طيبًا هـادئ النفس مشهودًا له بالتقوى والعزلة منذ كان شابًا منخرطًا فى صفوف المتصوفة أصحاب السيوف الخشبية والعمامة الخضـراء والشـعـر المنسدل إلى الكتفين والسياحات الطويلة فى الموالد بين طائفـة الطريقـة الـرفـاعـيـة، وقـضـى أيام رجـولتـه قـابعًا فى بيتـه يسـتـقـبل أهله وأقـرباءه فى «الشكمـة» ذات الحـديقـة الصـغـيـرة والمنعـزلـة عن بقـيـة بيتـه الذى يعج بزوجـاتـه الأربع وأبنـائهن المتكاثرين، إلا أن شـهـيـتـه تفـتـحت لبـسط النفوذ ودفع الأحداث والرجال حسبما يريد.

كـانت مـصلحـة الأمـلاك الأمـيـرية قـد عـرضت مـسـاحـة من الأرض المتـاخـمـة للسكة الحـديد للبـيع،

واتفق أهل القرية على شرائها وتقسيمها بينهم أنصبة عادلة، واختاروا أبى ـ تربية «التلطيم» فى المحاكم كما كانوا يقولون ـ لحمل مسئولية العقود والتوثيق والتقسيم، ولكن صفقة سرية عقدت لاقتسام الأرض كلها بين اثنين: رجل غريب عن القرية من أتباع وصنائع أحد كبار الملاك، وعمى.

استأنف أبى الصراع وكتابة العرائض وحضور التحقيقات وإرسال البرقيات، ومن حوله الثائرون الغاضبون.

بعد أداء صلاة الجمعة، والمسجد محتشد بالمصلين، وقف عمى يوبخ ويهدد ويتوعد المطالبين بحقهم فى الأرض وسابق اتفاقهم الجماعى ويسب أبى سبابًا مقذعًا، وانتظرت أن يرد عليه أحد، ولكن وجوم الصمت وخنوع الخوف لفا الجميع، فوقفت محمومًا تكاد دقات قلبى تخرج من أذنى، وصرخت أرد عن أبى وعن حق الجماعة، وأبادل عمى سبابًا بسباب، وأسخر منه بفاحش القول وأبالغ فى التهكم المقذع حتى المساس بالأعراض، فيهيج أبناؤه وأقرباؤه المنافقون وقاموا يريدون الفتك بى، فنهرهم عمى وأمرهم أن يتركونى، ولكنهم تحلقوا خارج المسجد متربصين فى انتظارى، وما كدت أخرج حتى اندفعوا إلىَّ وصائح منهم يصيح: اقتلوه ابن الكلب، كنت فى ذلك الزمن البعيد فى خفة الفهد، أمارس المصارعة الرومانية والملاكمة وألعاب القوى وكرة القدم والهوكى،

ولا يرانى أحد إلا فى حال من التوثب والحركة ولا يسبقنى أحد فى الجرى وتسلق الأشجار وإصابة الأهداف، فما كاد يقترب منى أول المهاجمين، وهو فى قوة الثور وغبائه، حتى تلقيته بحركة اختطاف والتفاف تعلمتها من المصارعة الرومانية، فإذا به يهوى على الأرض مكشوف الجسد متخبطًا فى ثيابه التى غطت عينيه، والثانى بلكمة فى أنفه أسالت دمه، وحرصت على أن يكون الجميع أمامى وظهرى فى مأمن، ولكن الأيدى تكاثرت من حولى فضاق مجال الحركة الحرة التى تسمح لى بالمراوغة والمناورة، وبدأت قواى تضمحل ودبيب الرعب يقطع أنفاسى، فأنا أعرف همجية أقربائى وتميزهم بغرور القوة والقسوة العمياء، وكدت أسقط تمامًا بين الأيدى التى تنازعتنى لولا أن أدركنى بالتدخل عدد من المتفرجين فانتزعونى وأحاطوا بى حتى أدخلونى بيتنا ودمى يسيل من أنفى وصفحة وجهى.

قالت أمى لمن أنقذونى: لقد أرادوا قتل أبيه من قبل، غيرةً وحسدًا، أما أبى فقد جاء مهرولاً من المسجد الغربى بعد أن بلغه الخبر، أخذ يفحص جروحى ويقول لمن تبعوه إلى البيت: والله لو قتلوه ما اكتفيت بعشرين منهم، فتذكرت المسدس وصمت رشاقته القادرة ورفاهية معدنه المصطفى والتتك الذى يشبه لسان العصفور، قلت من تحت أسنانى وأنا أكظم الغيظ: بأى شىء وقد بعت مسدسك بعشرين جنيهًا!!

كانت المرة الوحيدة التى شعرت فيها بأننى موضع فخر واعتزاز من أبى، والرجال يدخلون ويخرجون للتهنئة بسلامة الولد، وانتهزتها فرصة لا تعوض لأطلب موافقته على التحاقى بمعسكر المتطوعين من طلاب المدارس للتدريب على القتال استعدادًا للذهاب إلى قناة السويس لمقاومة الإنجليز ودحرهم بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦.. فوافق على الفور وأعطانى جنيهًا كاملاً. تعطلت الدراسة وأقيم المعسكر فى فناء المدرسة، نقضى النهار فى تدريبات اللياقة البدنية وفنون حرب العصابات والشرح النظرى لإمكانات بندقية «لى أنفيلد» والقنابل اليدوية مع نماذج منها للتدريب على عمليات الفك والتركيب وإصلاح «الأعطال»، يقودنا ويعلمنا ساحران من سحرة ذلك الزمن البعيد: الشاويش سالم وفؤاد التلاوى، أولهما تجسيد حى للفلاح الأصيل حينما يتلقى بعض المعرفة والاحتكاك الذكى بالمدينة والحياة العسكرية، يتميز بالرجولة وقوة الشخصية وبساطتها، يكاد يكون أميًا ركيك الخط، ويملك قدرة ساحرة على الحديث الحميم العميق، يقف الصقر على شاربه الكث المفتول، وذكرياته عن حرب فلسطين تشعل النار والغضب والإصرار على الثأر فى عروقنا، وحديثه عن السلاح مرتب محفوظ كأنه يقرأ من كتاب، التزم بالبقاء معنا فلم يذهب مرة واحدة إلى قريته القريبة «سنصفت»، وكان شديد المهارة فى رسم أجزاء السلاح وشرح وظائفها وعلاقاتها الميكانيكية ورسم مسارح العمليات

وأساليب حرب العصابات واحتياجاتها التعبوية والمعنوية، والمهارات الضرورية اللازمة لها، رحمه الله، أما ثانيهما فقد كان أعجوبة من أعاجيب النشاط المتوقد والحركة الدائبة، وهو مدرس الألعاب فى المدرسة، فارع القامة قوى متين البنيان، يرى فى أركان المدرسة وممراتها وأفنيتها جميعًا فى وقت واحد، له سطوة ومهابة تحفظان النظام كأنه روح المدرسة وقانونها الصارم، سمرته لامعة ومرحه يشيع البهية الحازمة، وكان يأتى من قريته «تتاوغمرين» جريًا أو مشيًا فى أغلب الأحيان ويسمى رحلته اليومية «تمارين الصباح»، وقد استولى على أسماعنا وأشعل نار الفدائية فينا بحديثه ـ وهو حكّاء كبير ـ عن خدمته العسكرية فى طبرق والعلمين وواحات الصحراء الغربية، مد الله فى عمره.

كان التدريب شاقًا بالليل والنهار، وفى عنفوان تطوعيه للجسد والروح بالعرق والحماس المتوقد، كان الصبا وشتات المراهقة يتحولان إلى وقد انصهار فى الجماعة تتفجر بالعزم وقداسة الوطن وعذوبة الذوبان فى احتمالات المجهول ومواجهة العدو، والحركة البندولية على أقواس القلق واستعجال المصير المؤكد بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وكأننا قبضة هائلة تدق على أبواب الكون دقتها المتعالية، فيتعالى فى قلوبنا اليقين المطلق بأن شيئًا فى الدنيا لا يستطيع هزيمة شعب مسلح لا يخشى

الموت، والساحران القديران ينفخان فى أرواحنا بعصف النار المتأججة.

انفجر حريق القاهرة فى يناير قبل التحاقنا بالكتائب المقاتلة فالتهم روح المعركة كلها، وأعلنت الأحكام العرفية والعسكرية وأطيح بالوزارة، وانحلت معسكرات التدريب وأغلقت المدارس وانفرط الجميع إلى بيوتهم، فعدت إلى القرية مثخنًا بالغضب والهوان وخيبة الأمل، يهيمن علىَّ إحساس عميق باطش بأن مصر كلها أصبحت كالحصان الذى اجتثت ذكورة عنفوانه وتُركَ فى برارى اليأس والموت الذليل البطىء، وأنى خِرقة تافهة تدوسها الأقدام وتجررها الرياح بين الخرائب.

لم أكن أعلم أن عملية خصاء عاتية سأتعرض لها بعد قليل، فقد قررت وزارة المعارف فتح المدارس وعقد امتحانات تنهى بها العام الدراسى، وقررت احتساب درجات الفترة الأولى ونصف السنة ضمن درجات الامتحان الأخير بسبب الإضرابات وفترات تعطيل الدراسة المتكررة، وكأننى المستهدف وحدى بهذه الخيانة المباغتة، فقد كنت لا أهتم ولا ألتفت لأى امتحان قبل نهاية العام الدراسى، فهى اختبارات لا دور لها سوى الحث على المذاكرة وبيان المستوى الدراسى أثناء شهور الدراسة ولا حساب لها فى درجات النقل، وكان موسم مذكراتى المعتاد يبدأ قبل نهاية العام بشهر، وهكذا وجدت نفسى ـ وبعد غدر

لئيم - أذوق محنة الرسوب وإعادة السنة الدراسية لأول مرة فى حياتى، وهكذا بدأ صيف تعيس تحفه الكارثة الشاملة وكأن نظام الكون قد تهدم وهوت مزق السماء على الأرض، وشقيت بهذه المحنة شقاء لا يوصف، وابتدع أبى من أساليب التعذيب والإذلال ما تشيب لهوله الأجنة، واتفق الجميع على أن سبب الكارثة هو القراءة والكتب و«الكلام الفارغ» الذى أكتبه، ودارت معركة قاسية بينى وبين أبى وأقربائى أحُرقت فى معتركها كتبى وأوراقى، وأحُكمت سياسة التجويع المذل حتى لا أشترى ورقة، ودفنت بعض كتبى وأوراقى فى الأرض حرصًا عليها من التمزيق أو الإحراق واخترعت من أساليب المغالبة والتحايل والتخفى ما يمكننى من المقاومة، وامتد ذلك كله طوال السنتين الأخيرتين فى المدرسة الثانوية، ولكن أقسى ما عصف بى من الهوان والمذلة هو ذلك الإهمال والحرمان المطلق من الملابس، فازددت رثاثة على رثاثة، وكأننى شبح ينطلق كل صباح بهلاهيله المتربة، تخترقنى نظرات الإشفاق أو الازدراء الصامت أو التأفف المعلن، وما كان أفدح ذهولى لجلافة وغلظة مدرس الجغرافيا حين رآنى أشرح لزملائى ما قرأته عن فرويد ومدرسة التحليل النفسى فقطع حديثى بقوله: «مالك يافيلسوف الغبرا مقطع ومبهدل كأولاد الشحاتين»!! وكان هول البؤس والتعاسة يتفجر داخلى، أنا المثقف المحتشد بكبرياء الملوك وعنفوان العاصفة الملجومة، بنوبات من الغضب والتحدى

العنيد، ففى لحظة فاض فيها ما طفحت به نفسى، وضعت كل ملابسى المهلهلة فى كومة واحدة وأضرمت فيها النار، ووقفت بالمزق الداخلية أقلب النار حتى أصبحت رمادًا، وهرع أبى حين علم بهذا التحدى والمروق الفاجر وفى يده عصاه الثقيلة، ورفعها ليهوى بها على رأسى فتفاديتها، وبحركة متوثبة خاطفة كنت أحتضنه وعصاه بين يدى وأشل حركته تمامًا وأنا أصرخ: سأشعل النار فى نفسى وفى كل شىء مالم ترحمنى من هذا الإذلال. وأسرع الجيران يحيطون بنا ويحتجزون كلاً منا بعيدًا عن الآخر، واجتمع محفل التهدئة والمصالحة، هو يصفنى بالعقوق والمروق ويطلق آيات القرآن، وأنا أرد بالقرآن وبالحديث الشريف: «رحم الله امرءًا أعان ولده على البر به»، وأشرح كيف أنه لم يترك لى فرصة واحدة لهدوء نفس أو كرامة أو تفاهم، وهو يخرج من دولابه أدلة استحقاقى للعنف والإهانة: كتبًا ومجلات وكشكولاً جمعت فيه من أفواه الفلاحين مواويل شفيقة ومتولى، وحسن ونعيمة، وأدهم الشرقاوى، وزهران، والوردانى، وغيرها من فنون التعديد وشكوى الزمن، وأنا أنتهز فرصة وجود الوسطاء لأقرر حقوقى الشرعية الواجبة وأهدد بالشكوى أمام القضاء لضمان هذه الحقوق المهدرة، واستقر الصلح على هدنة حذرة متوجسة، حتى فوجئت به فى حجرة ناظر المدرسة حينما استدعانى وبسط شكوى أبى منى، وأنا أدافع عن نفسى وقد تقطعت أنفاسى بالبكاء المرير، طلب

الناظر كراسة الإنشاء فأحضرتها، وقرأ بصوت مسموع ما كتبه الأستاذ محمد برهام تعليقًا على ما كتبت: «هذا الأسلوب يبشر بأديب» ونظر إلىَّ حزينًا متعاطفًا متصنعًا الحزم، وطلب أن أُقَبِّلَ رأس أبى ويديه فخرجت أجرى باكيًا رافضًا..

٣٣ - قرابات الغرباء

كان العجب من اتساع الأرض واختلاف مظاهر البشر ولهجاتهم هاجسًا فى نفسى بالأسئلة وأنا أرى الغرباء يظهرون فى القرية بين وقت وآخر.

كان مفهومًا عندى أن يأتى الموظفون من أماكن بعيدة، فهم - على أى حال - ينتمون لقوة مجهولة مسئولة عن إدارة السكة الحديد أو مكتب البريد أو البوليس أو الشونة، وكأنهم قشرة خارجية تتبدل مع الزمن وتظل منفصلة لا تشتبك بوشائج عميقة دائمة مع كيان القرية، ولم يكن ذلك يدهشنى باتساع الأرض أو يثير أسئلة حيرة. أما الغرباء المثيرون الذين يشتبكون معى فى وشيجة حوار نفسى وتساؤل مندهش فقد كانوا قلة عابرة ولكنهم تركوا فى نفسى تأثيرهم العميق.

أولهم «العربى»، هكذا كان اسمه المعروف به، يعمل حارسًا عند أحد كبار الملاك، هزيل ضامر وأطول

قليلاً من صبى، يلف رأسه بخرقة متسخة، وينفتح طوق جلبابه عن صدر عظمى عريان، ويسكن فى خص من البوص بين الحقول، ويدور معظم الليل والنهار بين الغيطان. يشيع عنه أنه قاتل محترف، جاء من بوادى مديرية البحيرة هربًا من مطاردة البوليس أو أصحاب ثأر أو ما شابه ذلك، ولكننى أنست إليه وأحببت ذاكرته الفيَّاضة وطريقته الممتعة فى قص الحكايات ونوادر الأخطار والأسفار، وأنا فى حال من نشوة الاستماع إلى لهجته وتأمل أحواله الغريبة من تقشف يجعله كأنه يعيش على الهواء، وبهجة اتكال عجيب على «فيض الكريم»، واطمئنان سخى كندى الصبح، وأتمنى أن أعيش مثله فى الخلاء مطلق الخطى مكتفيًا بأخوة النبات والحيوان وظلمة الليل وبعض الغناء المكتوم.

لم يكن له من سلوى أو تسلية سوى أكواب الشاى الثقيل ولف أوراق البافرة على فتائل الدخان، وقد عاش فى القرية سنوات، لم يتبدل من أحواله وعاداته شىء، ولم أكف عن ملاحقته ومشاكسته بالمقالب المرحة والمفاجآت المبهجة حتى غاب فجأة وانقطعت أخباره عدة أيام، وسمعت ممن يعرفونه أنه وجد مقتولاً على الشاطئ الشرقى لفرع رشيد، قبل أن يعبر إلى تخوم مديرية البحيرة، فبكيت صحبته وعجبت لضيق الأرض على هذا الغريب المطارد بموت مجهول متربص.

أما ثانى الغرباء، فإن زيارته للقرية لم تدم سوى ثلاثة أيام، كان شيخًا عجيبًا لم أستطع نسيان وجهه

طيلة نصف قرن، وجهه محتدم الحمرة ذو لحية رقيقة مرسلة، يلبس ثيابًا غريبة مطرزة بزخارف باهتة، ويلف رأسه بشال يظهر تحته طربوش كالعمامة ذو زر غليظ من الشراشيب، وعيناه زرقاوان تشعان بالذكاء والصفاء والطيبة، أشار إلىَّ فاقتربت منه خائفًا مستطلعًا، كلمنى فلم أفهم، فاستنجد برجل مر بنا، وعلى الرغم من صعوبة التفاهم معه إلا أنه أدرك حاجته للذهاب إلى المسجد، ومشيت وراءهما.

دخلت المسجد وراءه وتابعت وضوءه وصلاته وهمهماته المطمئنة المنغومة الخافتة. اقترب بعد الصلاة من أحد أقربائى وتحدثا لوهلة ثم انصرفا معًا، فتبعتهما.

عرفت من أقربائى أنه مغربى جاء من بلاده ماشيًا فى طريقه إلى الحج، وأنه سوف يواصل السير على قدميه حتى مكة والمدينة المنورة، هكذا نذر وقطع على نفسه العهد، والرحلة تستغرق عامًا كاملاً فى الذهاب والإياب، وهو يؤمن أعمق الإيمان بأن الحج بغير هذه الطريقة لا يكون حجًا مبرورًا ولا يغسل الذنوب اختلط علىَّ اسم بلده «المغرب» بوقت الغروب، وظننت أنه قادم من الأرض التى تغطس عندها الشمس عند حلول الظلام، وتصورت اتساع الأرض ببلاد لها أسماء الزمن وأوقات الصلوات الخمس، ويالها من أرض متسعة اتساع السير طوال عام كامل، وكم فى البشر من غرباء لا نعرفهم ولا نراهم!!

ثلاثة أيام و أنا أتابعه وأقترب منه ما استطعت، أسمعه وألتقط بعض الكلمات المفهومة، وأنظر فى وجهه إشراق السماحة والرضا وخطوط العزيمة والإصرار على جبهته .. نعم.. على قدر المشقة تكون مغانم الرحلة، وعلى قدر السهولة والاقتناص الخاطف تكون تفاهة الحصاد.

و أما الغريب الثالث فقد كان جمرة اكتويت بها وتركت وشمها المتأجج فى الضلوع ولم تفارقنى ابداً.

كنا نتسقط اخبار الحرب فى فلسطين وتصلنا أطراف حكايات وأنباء عن المجازر والمراهنات بين الصهاينة على نوع الأجنة فى بطون الأمهات، ليربح من يربح ويخسر الرهان من يخسر بعد شق البطون بحراب البنادق، وكنا نخرج إلى المحطة لنستقبل ونودع المجاهدين الفدائيين الذاهبين إلى ميدان الحرب، حتى هبط هذا الغريب إلى القرية ذات ضحى..

كان ضخمًا يلبس العقال وجاكتة بنية ممزقة على جلباب متسخ تمتد من تحته ساق خشبية لها دبيب مسموع، ويمسك تحت إبطه بعكاز غليظ يعتمد عليه، وباليد الأخرى يمسك طفلة صغيرة ووراءه تسير امرأة وصبى، وأخذ ينادى بصوت ذبيح: «طردونا الملاعين.. بعد ما قتلوا أولادى الثلاثة.. حسن وطه وإسماعيل.. يامسلمين.. طردونا الملاعين..

أخذ يجأر بصوته الذبيح وأنا أتبعه ويتزايد من ورائه الصغار والكبار فى موكب بطىء زاخر كأننا فى

جنازة لم أشهد لها مثيلاً، نساء ورجال وأطفال يبكون، وتراب مثار يلفنا ويزحف معنا ببطء.

استضافه بعض أهل القرية أيامًا وجمعوا له ما يستعين به على المحنة، ثم سافر إلى بقية أهله فى مديرية الشرقية، ولم يعد للقرية من حديث ونجوى سواه لمدة طويلة، ولكنه ظل يدب بعكازه وساقه الخشبية فى دمى ولا يبرح صحوى أو منامى.. وأعرف أن صوته سوف يجلجل متصاعدًا من جثتى ساعة أموت ليسمعه أهل الأرض الواسعة التى يقطعها الحاج مشيًا فى عام كامل.

أما رابع الغرباء فقد كان الحداد الذى يأتى إلى القرية فى مواسم العمل والحاجة الملحة للمناجل والشراشر والقريانات والمحشات الطويلة المعقوفة كالخناجر أو الفئوس والمناقر والكوريكات بالإضافة إلى الاحتياجات المعتادة من بلط ومزاليج وشقارف وسواطير.

وكان يختار أى جرن أو مكان مهجور ليقيم خيمة من الخيش المرقع تتسع للسندان ومنفاخ النار وأدوات الحدادة الأخرى من غرارة الفحم والمطارق والشواكيش والكلابات وأوانى الطبخ.. إلخ فيتداعى إليه أهل القرية، وله بينهم أصدقاء وزبائن دائمون يدفعون أجرته من محاصيل المواسم أو القروش القليلة.

كان أسود الوجه دقيق الملامح أصفر الأسنان، وعيناه الواسعتان معكرتان بصفرة وحمرة خفيفة،

سوادهما شديد الالتماع مما يعطى حضوره مهابة وخطرًا، يكز على أسنانه ويطحن به وهو يلتقط من قلب الجمر المتوهج قطع الحديد والأسياخ وبقايا الأدوات المسكورة بكلابة معقوفة يسميها «الغراب»، ويقلبها على السندان وهو يدق بمطرقة ثقيلة ويشكلها كما يشاء، وابنه المراهق يساعده والعرق يسح على وجهه الأصفر المعفر بالدخان وتراب الفحم.

أما زوجته فقد كانت كالمارد، فتية جريئة لا أكاد أعرف من أين ينبعث سحرها وحضورها الغلاب، مثقلة بالعقود ودندشة الحلى حول رقبتها ورسغيها ويتدلى من أذنيها قرطان هائلان على شكل الهلال، أثوابها مشجرة بالزخارف الملونة وتفوح منها رائحة عطر حارق وعرق ودخان، تخرج ثديها المنتفخ أمام الزبائن وتلقمه طلفها الرضيع فيصل إلى شفتيه وهو راقد على ركبتيها كأنه ضرع بقرة، ولا أظن أن الرجال يلتفتون إلى كل ذلك، بل هم أسرى النظر والتطلع إلى عينيها العجيبتين، فهما تكادان تستغرقان وجهها القمحى باتساعهما والتماع هالات الكحل حولهما، ونقطة الوشم أعلى حاجبيها.

كانت تخرج كل صباح إلى دروب القرية، رضيعها على ذراعها، فوق رأسها قفة الخوص، وتسرح بين الدروب والغيطان تقرأ خطوط الرمل والحصى والودع وتقلب أجفان العيون لتستخرج منها ومن الآذان الدود والأوساخ، وتعود بعد العصر بما جلبت من طعام

وحـبـوب وقـروش قليلة وقـراطيس الشـاى والسكر وصناديق المعسل.. هـم غـجـر لا نعـرف عنهم شيئًا ولا يتحدثون عن أنفسهم بكلمة واحدة.

كنت أسارع بتلبية مـا يطلبون من ماء أو شراء شىء من الـدكـان أو إتحـافـهـم ببـعض الجبن القـديم الذى اشتهرت به أمى فى القرية، حتى أستطيع الاقتراب من السندان والمنفاخ ومشاهدة الحديد فى قلب النار وهو يحمر شيئًا فشيئًا حتى يتوهج ويلين كالعجين بين السندان والمطرقة أو «المرزبة» ويتحول ويتشكل كائنات مدهشة يلقيها الحداد فى الماء فتصدر منها أصوات غليان مفاجئ بطشطشة متفجرة سرعان ما تخبو.

لم أكن أمل النظر إلى الحديد المتـوهج اللين وهو ينزك حـول السنـدان فتـاته الصلب وقشوره الخـابيـة وقد دبت فيهـا زرقة خـفيفة لامعـة تئول إلى سواد معدنى منطفئ، وكأن الحديد كائن حى أيقظته النار وأخرجته من جلده ورماده كما تنبت حبة الذرة أو نواة البلح، ليستأنف ـ من رميمه ـ حيـاة الكدح فى أيدى الفلاحين، هكذا كنت أرى الحديد وأعى وعيًا غامضًا كيف يقترب أو يبتعد أى شىء من الحياة وحقيقة الولادة بقدر اقترابه أو ابتعاده عما خلق له واندمج به من أدوار، وكأن خيمة الحداد بطن امرأة ولادة تتلقف رمم المعدن ونفاياته المحطمة لتلدها كائنات حية من جديد.

أوشكت الشـمس على المغـيب ذات يوم ولـم تظهـر

الغجرية فى الخيمة، وجاء غجرى من قرية قريبة وأسر فى أذن الحداد بكلمات قليلة، وفوجئنا بالحداد يولول ويصرخ ويهيل التراب على رأسه، وينفجر بهيجانه المدمر فيقتلع الخيمة ويحمل كل شىء على ظهر حماره، ويخرج من القرية باكيًا مولولاً مهددًا بالانتقام من غريم مجهول ومن «اللبوة» الخائنة.

علمنا أن امرأته فرت مع حداد آخر فى قرية مجاورة وهربًا إلى المجهول، قال قائل: «غجر بصحيح» وأخذنى العجب من ضيق الأرض واتساعها فى وقت واحد، قلت: لعل الحداد يولد من جديد كما يولد الحديد من الجمر واللهب وبين المطرقة والسندان.

٣٤ ـ موت السيدة الأولى

هى امرأة فخمة عفية، وحضور محتشد بالطيب والتماعات الكحل ودقات الخلاخيل ووسوسة الأساور الذهبية، تمشى وهى تدق الأرض بخطى قوية لينة، تسبقها روائحها فأعرف ويعرف أبناء العائلة أنها فى الطريق وإن لم نرها، تحنو علينا حنو الأم، فإن سلمت أو وضعت يدها على رءوسنا، أو أكتافنا تركت يدها من عطرها أثرًا باقيًا، تستضىء رقبتها بالكهرمان والذهب، وتشف جلاليبها السوداء الخفيفة عن جلاليب أخرى زاهية الألوان، ومن تحت طرحتها الشفافة تبرق المناديل بالخرز، وتتدلى العراوى المجدولة مع ضفائر الشعر إلى قرب كعبيها المصبوغين بالحناء دائمًا.. لقد كانت هى الفخامة وعرام الزينة وتفتح الحياة بالحيوية المهيبة..

كانت زوجة أحد أقربائنا مع ثلاث زوجات أخريات، تحبه أعمق الحب وتمت إليه بصلة قرابة

بعيدة، أما هو فقد كان طاغية ظريفًا فى طغيانه وقسوته، مع اعتراف الجميع بوداعته وهدوئه، وأقام من بيته قلعة أو مملكة يسودها نظام من الهيبة والطاعة والولاء، ويحكمها نظام من الفصل العنصرى العجيب.

للبيت جناحان؛ أحدهما حجرتان تنفتحان على «شكمة» تمثل مكان الجلوس العام، لها سور بارتفاع متر، تحيط بها حديقة صغيرة بها طلمبة مياه يدوية لرى الحديقة، وفى جانب منها دورة مياه للضيوف والزوار وجلاس العصارى وسمار الليل، والجناح الثانى له مدخل من الجناح الأول به باب هو الحد الفاصل بين مملكتين منفصلتين، وهو المعبر للسيدة الأولى أو الزوجة المقربة الحاكمة والمسئولة عن مملكة الزوجات الثلاث الأخريات، فلا يصل للزوج عجيج ومعترك أولاده وأحفاده ولا يكاد يعرف شيئًا عن عالمه إلا من خلال «السيدة الأولى».

هو يفتح هذا المعبر بنفسه مرتين فى السنة، ويدخل إلى الجناح الثانى، مرة بعد قطع الذرة ومرة بعد حصاد القمح، ليعطى كل واحدة من نسائه الثلاث نصيبًا معلومًا من الذرة أو القمح هو «المقنن» يتفاوت بنسبة عدد أولاد كل واحدة، ثم يغلق على باقى المحصول مخزنًا يضع مفتاحه فى جيبه ثم لا شىء بعد ذلك، وعليهن أن يتدبرن أمور معاشهن الأخرى كيفما استطعن بلا عودة إليه فى أى شأن، وكنا نسمع

أنه كان لا يرى أولاده قبل أن يبلغوا الرابعة أو الخامسة، وأنه يخطئ فى تذكر أسمائهم، أو يسأل بعضهم: ابن من أنت يا ولد! الزوجات الأربع لا ينقصن واحدة، فإن ماتت أو تمردت وطلقت واحدة دب الرعب فيهن ووحدتهن المأساة. فالتراتب سوف ينهار، وسوف تحل زوجة جديدة بينهن، وسوف ينحدر مقام السيدة الأولى إلى الضياع فى عجيج الفوضى والحرمان بين رعاع المعزل والفصل العنصرى الأليم.

كان يتوخى فى اختيار الزوجة الجديدة التى ستصبح السيدة الأولى أن تكون جميلة «مربربة» ذات حسب ومال، وأعجب ما كان يدهشنى أنه يلقى القبول والترحيب فلم تمتنع عليه امرأة اختارها أبدًا على الرغم من معرفة ما هى مقبلة عليه، حسبها أن تكون السيدة الأولى ولو لزمن محدود.

قنعت المرأة الفخمة العفية المحتشدة بالزينة والطيب والأنوثة الفوَّارة بمكانها ومكانتها فى جناح المحرومات المستبعدات، وامتلكت وضعًا متميزًا بأن ابنها الوحيد وابنتها الشابة هما المقيمان فى الأرض والمسئولان عن الزراعة والماشية وأوانى الحليب والجبن والزبد، والأقرب إلى حرية «الهبش» واختلاس ما يتيسر، وهى كالمهرة العصية تملأ ما حولها حركة وحياة وغندرة.

مرت الأعوام هى لا تشيخ ولا تذبل حتى مات الزوج فجأة عن هذا الموج المتلاطم من الزوجات

والأبناء والأحفاد، وظلت هذه القبيلة الصغيرة متماسكة بعض الوقت، ثم بدأت حركات الاستقلال والتشرذم، وبدأت أمارات الهدم والانحلال وأفاعيل الزمن تنتقص كل يوم من فخامة المرأة العفية وتبدد عنفوان حضورها حتى أصابها مس من الجنون وغياب العقل، وبدأت شيئًا فشيئًا تسير حافية ممزقة الملابس تكلم نفسها وتصرخ صراخها الحيوانى المرعب مستنجدة من هول الآلام المجهولة التى تطحنها، ولا تطيق البقاء فى مكان.

أحس ابنها الوحيد بالعار وشماتة الناس والخوف من الفضيحة فأغلق عليها باب حجرة فى مسكنه فى الحقول، فاشتد صراخها وهياجها، فاهتدى بعنجهية قسوته وغلظته إلى طريقة يريح بها نفسه، فقد أوثقها وربط يديها ورجليها فى وتد بالقرب من مربط البهائم فلا تستطيع الإفلات ولا تمرغ كرامته بعار الركض فى شوارع القرية وحاراتها بجنونها وصراخها وعريها، ووضع بجانبها قلة وآنية من الفخار يرمى فيها بطعامها، وهى لا تكف عن كلامها الغامض وصراخها الملتاع، وتنام معجونة ببولها وبرازها وروث البهائم القريبة منها، وسد ابنها أذنيه عن أية مشورة أو نصيحة أو استعطاف من الأقرباء ليرحمها أو ينقلها إلى مكان آخر..

كانت المأساة مرعبة لى وأنا أدور حولها من بعيد باكيًا عاجزًا عن فعل أى شىء، وكرهت انتمائى لجنس

البشر، وكلما اشتبكت فى نفسى صورتها، صورة المرأة المهرة المثقلة بالزينة الفوَّاحة بالطيب وصورة الأسيرة المنسحقة بالجنون والقسوة وموت الضمائر والمشاعر ، اشتعلت فى روحى وعقلى نيران الكراهية للظلم والقسوة وتحجر القلوب، وتحددت معالم معركتى الشخصية التى أحتشد لها بكل قواى، فألتهم الكتب، وأشرب مشاهد الدنيا بحرقة المسئول عن كائناتها، وأنفض القواميس والمعاجم بحثًا عن دموع الإنسان وجمرات الغضب وحرائق الحرية فى التاريخ.. من نسمة الهواء حتى الجنون الأسير والصراخ المكبوح.. فتتسع الدهشة وتتوالد الأسئلة..

٣٥ - شمس فى سماء القلب

ومضة تُذكر هى، أم أن ما أراه حقيقة واقع تنشق عنه المصادفة بعد عشرين عامًا؟! أدرت وجهى وتابعته وهو يدور حول الأتوبيس الجماعى الذى سينقلنا إلى المطار، إنه هو، بشعره الأجعد المرجل إلى الوراء بأناقة وعناية، وإن يكن قد تشعع فيه بياض المشيب، وبعينيه الزرقاوين العميقتين اللتين تفيضان بالمرح المكتوم وطيبة النفس وسكينة الروح، وبقامته الفارعة وكتفيه اللتين تبدو عظامهما تحت الجاكت، لا شك أنه هو، رسول العناية الرحيمة الذى ساقته الأقدار ليمد لى يده وأنا فى معترك محنتى بالأهل والمدرسة والفقر والرثاثة، هو يدور حول الأتوبيس مستطلعًا عبر نوافذه باحثًا عن وجه ما، وأنا أتابعه حتى أتأكد من ملامح وجهه ومشيته وأصابعه، فأصابعه من معالمه التى لا تنسى، وهى أجمل وأرق وأرشق ما رأيت من

أصـابع البـشـر، كـأنهـا الموسـيـقى الخـالصـة أو كـأنهـا خلقت للعزف والتعبير المرهف.

هرعت إليه أحتضنه وأقبله وأرفع يديه إلى شفتى فينتزعهما، قال: إننى أبحث عنك، علمت بسفرك من هنا فانتظرتك وانهالت أسئلتى الملهوفة بلا نظام، عما فـعل الـزمن به، هل تـزوج وأنجب أولادًا، كم، ومـا أسـمـاؤهم،؟وكانـت عيناى تتـخطفـان أثر العـمـر على ملامحه وصوته، قال: لم أنسك يومًا واحدًا منذ نقلت من مدرسـة منوف الثانوية، أعرف أخبارك كلها وأتابع كل ما تنشره، سألته: أوجدت ثقتك فى محلها؟!

قال: أنت لم تخذلنى أبدًا وكل ما توقعته منك ولك يتحقق بصـورة رائعة، وافترقنا على لهفـة اللقـاء بعد عودتى من تونس.

كان الأتوبيس الجماعى ينطلق إلى المطار، وأنا فيه عضو فى وفد مصر إلى مهرجان الشباب الإفريقى فى تونس، تتخاطف أضواء الطريق عينى بينما أغرق شيـئًا فشـيـئًا فى الذكـرى البـعيدة لصداقة انقطعت عشرين عامًا بعد أن تركت علامتها المضيئة فى سماء قلبى المعتمة حينذاك.

كنت قد جننت فزعًا وغضبًا حينما وجدت لافتة معلقـة على باب مكتبـة المدرسـة تعلن أنهـا «مـغلقـة للجرد». قلت نافخًا بـالغضب: أى سنة سوداء هذه! ولا قرش لأشترى مجلة أو كتابًا.. ثم تكتمل الكارثة بهذا «الجرد»!!

مرت أيام وأسابيع وأنا أعود خائبًا غاضبًا من هذا الجـــرد الذى لا يؤذن بنهــاية، فــأرسلت إلى إحـــدى المجـلات صـرخـة استـغـاثة نشـرتهـا فى بريد القـراء، أستعطف فيها إدارة المدرسة لتعيد فتح المكتبة، وفى صبـيحـة اليوم التـالى دخل إلىَّ حـجـرة الدراسـة من ينادى باسمى فوقفت، وتبعته بعد أن طلب منى اللحاق به، ســألنـى: لم شكوتنا إلـى المجلة.. لماذا لم تـأت إلىَّ فـأسـأعـدك وأعطيك مـا تشـاء من كـتب؟! قلت: وهل سيـأتى إليك جـميع الطلاب؟! افـتحـوها إذن إذا كنت سـتلبى طلب الجـمـيع. قـال: أنا «أحـمـد العـمـرى» الأخصائى الاجتماعى بالمدرسة، والمكتبـة فى عهدتى حتى يعين لها أمين آخر غير الذى نقل.. تعال معى أفـتحـهـا لك لتـأخـذ مـا تشـاء من كـتب ثم تردها بعـد القـراءة لتـأخـذ غيرهـا، وأعـتـقـد أنك سـتكون أمـينًا لا تبدد شيئًا منها.

أخـذ يتـابعنى وأنا أنتـقى بعض الكتب من دولاب معين كنت قد قررت أن أقرأه كله قبل مصيبة الجرد، ولكنه التقط كتابًا وطلب منى أن أقرأه مع مـا انتقيت، كـان الكتـاب أنيقًا بغـلافـه الأسـود اللامع وقـد كـتب عنوانه باللون الأصـفـر واسم مـؤلفـه باللون الأبيض، شممت الكتاب واستنشقت رائحة الورق والحبر، وهذه عـادة قديمة ودائمة أسترد بها ذكرى أول مـرة شمـمت فـيـهـا رائحـة ورق الكتب المختلطة برائحـة الخـشب المدهون وفـتـات الخـبـز والجبن فى أول «درج» جلست إليه فى المدرسة الإلزامية، وهى الرائحة التى تعشقتها

طول عمرى معتقدًا أنها رائحة العلم والعقل والإبداع.

كان الكتاب هو ديوان «أين المفر» للشاعر محمود حسن إسماعيل، ومع أول سطر من مقدمته النثرية الأخَّاذة، ومع أول بيت من أول قصيدة شب فى كيانى حريق يطيح بكل ما قرأت وحفظت من أشعار الرومانسيين الآخرين، الشابى وعلى محمود طه وناجى والهمشرى وبقية شعراء أبوللو والرسالة، وهيمنت علىَّ قرابة روحية عميقة واتسعت سطوة انتمائى للعائلة التى تضم الرافعى وجبران ومحمد إقبال والفردوسى وابن المقفع والجاحظ وهوميروس، تلك العائلة التى انتشلتنى وأنقذت إنسانيتى ووهبتنى الإحساس المتوقد بكرامة انتمائى لعائلة ملكية لا يطاولها انتساب أو انتماء، وها هو محمود حسن إسماعيل يأخذ مكانه فى سلالة العائلة.

قرأت الديوان مسحورًا مستلب الحواس، تعصف بىَّ موسيقاه وتزلزلنى سطوة أنظمة القوافى بالتكرار الرياضى المحسوب والتردد المتراوح المعقد والمفاجئ، والصور النابعة من تراسل الحواس وقلب العلاقات بين المجرد والمحسوس فى الوصف والتشبيه والمجازات والاستعارات المحركة للفكر، وعمق النفاذ النفسى إلى أحوال الطبيعة وعلاقاتها بأحوال الوجد المشبوب والشك والقلق والتأمل وعنفوان الصخب الروحى والاجتماعى، وبطولة التحديق فى العشق

والموت وجبروت اعتراف الملك العاشق بالضعف والهوان، ويالهول ما عصف بى، كأن الصور والموسيقى تنبع من قلبى وتقطر بها أعضائى وحواسى!!

حفظت الديوان من الغلاف للغلاف فى أيام قليلة، وأخذت أنسخه بخطى كما نسخت من قبل مؤلفات ابن المقفع ودواوين وقصائد شعراء بلا حصر، ولم يعجبنى النسخ فنسخته مرة ثانية وثالثة فى كشكول أنيق مع العناية بالعناوين التى كتبتها بقلم «البسط» والحبر الأسود، وكم شهدتنى الحقول وأنا أجأر أو أغنى مشتعلاً بقصائد الديوان، وأتحدى زملائى ومدرسى اللغة العربية أن يستطيعوا فهم وشرح القصائد وإدراك صورها ومعنى مجازاتها، حتى قال الشيخ «البتانونى»: لابد أن أحدًا شرحها وكشف غوامضها لك.. إذا كنت أنا نفسى لا أفهم! أيمكن أو يعقل أنك فهمت بنفسك «وألحد صوفى النخيل فما أرى به هزة كانت إلى النسك تنتمى»؟ فأشرت إلى نخلة بعيدة تميل مع الهواء وسألته: هذه الناسكة التى تطوح برأسها فى الهواء بالتهجد المطمئن.. ماذا يحدث لو سكن الهواء.. ألا تخرج من عبادتها ونسكها؟! قال: والله أنت ولد عجيب. ومثلما تعودت أن أقرأ أى كتاب «من الجلدة للجلدة» فقد تعودت أيضًا أن أحيط إحاطة شاملة بمن أحب من الكُتَّاب والشعراء، وهكذا بدأت البحث عن كل حرف كتبه محمود حسن إسماعيل، وحين قال لى صديقى وزميلى الشاعر «محمد على الحضيرى» أن أباه

مشترك فى مجلة ينشر بها محمود حسن إسماعيل قصيدة فى كل عدد من أعدادها الشهرية، كنت أذهب إلى قريته «مونسة» بدراجة أقطع بها خمسة عشر كيلو مترًا فى الذهاب والإياب لأنسخ هذه القصائد وأعود بها إلى قريتى بعد وجبة «المخروطة» أو «الكسكسى» المتوج باللحم والحاج على يغرقنى بدفء أبوته وذخائر محفوظة من الشعر و الحكم والأمثال.

حين علمت أن الشاعر يعمل بالإذاعة أرسلت إليه رسالة محبة وإعجاب أقول فيها: «لو كان أحد يُعبد بعد الله لعبدتك».

سألنى الأستاذ «أحمد كامل العمرى وأنا أرد إليه الديوان مع الكتب الأخرى: كيف وجدت الديوان؟ فحكيت له، ونظر إلىَّ نظرة لا تُنسى، يختلط فيها العجب والإعجاب والإشفاق، وفاجأنى بقوله: خذ الديوان لك، فكأنه وهبنى فلذة من روح الوطن.

صرنا صديقين، أنتظره كل صباح أمام بوابة المدرسة حين يأتى من القاهرة، ويجمعنا قطار العودة مرات فيجلسنى بجواره، ويمد إلى أصابعه الرشيقة بحبات الفول السودانى، فأخذها وأنا أكاد أموت حياء وخجلاً، ووجهه يشع بيقين الثقة بى، ويحدثنى حديث الاطمئنان إلى أن غدى سيكون أفضل، وأننى سأشق طريقى باقتدار، وكانت أولى بوادر ثقته أن قدمنى لناظر المدرسة وقتها، الأستاذ «عبد العظيم على قناوى» الذى فوجئ بحديثى له عن مقالاته القديمة

فى الرسالة ومجلة دار العلوم عن شاعر آل البيت «السيد الحميرى» وغيرها من دراسات، وأمسك بأذنى يعركها بين أصابعه حينما سمعنى أقول «يفلت» بفتح الياء، قائلاً: «ما كان ماضيه رباعيًا فإن مضارعه يكون مضموم الأول»، واختارانى لأكون رئيس تحرير مجلة المدرسة التى تصدر فى عدد سنوى، آخر العام الدراسى، فكتبت ما يقارب ربعها، ونُشرت صورتى بها مع المدرسين وأنا أحتضن مجلد «رسائل الجاحظ».

عدت من تونس ملهوفًا لوصل ما انقطع من صداقة خلاقة لم تبرح الروح، سألت عن الأستاذ فلم يهدنى أحد إلى مكانه أو عنوانه، وعدت خائبًا حزيناً، وهاهو ربع قرن آخر قد مضى، فيا سيدى.. أطال الله عمرك إن كنت حيًا ماتزال.. وإلا.. فليتغمدك برحمته التى وسعت كل شىء.

٣٦ - الكنز المرصود

مكمن للسحر الغامض وقوة الكائنات المنبعثة من صفرة الأوراق ورائحتها المتربة، وبؤرة لإشعاعات التاريخ وصخب الأبطال وجلبة المعانى الجليلة. وقوة مظفرة لدحر الشر ومطاردة الشياطين والدفاع عن طهارة البيت وصيانة العائلة من غوائل الأثام وخطرات الخروج عن مقتضى العفة والخلق الرفيع مهما تكن مصاولة الضعف أو انحراف الإرادة أو إغواءات الأهواء. ذلك المكمن الفذ والمكان المحاط بجلال الاعتزاز وقداسة الامتلاك هو الدولاب الكبير المقام داخل الجدار القبلى فى غرفة أبى التى لا يسمح لنا بدخولها إلا إذا استدعانا لأى سبب..

أما الدولاب، فإننى لم أفتحه ولم أضع يدى على ذخائره من الكتب أو الجلاليب الكشمير والعباءة الجوخ والكواكيل والشيلان الصوفية وشيلان العمامة

وطربوشيها القصيرين والحذاء المعد للأسفار المهمة إلا بعد أن توفى يوم ميلادى الأربعين.

كانت حكايات أمى عن الدولاب تنشر فى آفاق الطفولة والصبا تهاويل من أجواء الغموض والسحر والقوة الجبارة القادرة على كل شىء، فهو يتصل بالله وأنبيائه، وهو كنز ميراث انحدر إلينا من سلالة المشايخ والعلماء من أهلى، ألا يكفى أن به المصاحف والكتب المكتوبة بخط اليد - يد أجدادى، وأن به ذلك الكتاب الذى يقسم الناس ويحلفون به وعليه وتكنس باسمه أضرحة الأولياء على كل من خان أو ظلم أو ارتكب معصية، وهو كتاب «البخارى»!!

كانت تحدثنى عن العلم الطاهر الذى لا يبقى ولا يستقر إلا فى القلب الطاهر واليدالشريفة والنوايا الخيِّرة، وقد سمعت أبى يقص على أصدقائه حكاية زميلهم فى الأزهر - حينما جاور فيه فى صباه - قال:

ذهب الشيخ «فلان» ليحضر الإفطار ومعه الطبق الفارغ للفول والسلة الصغيرة للخبز وخضراوات «التحريش» وفتح الشهية، وقد كان أشقر فتيًا فى ريعان مراهقته وجماله المهيب، وحينما غاب طويلاً خرجنا للبحث عنه، فوجدناه يهرول نحونا بلا طعام وهو يبكى بكاءً زاعقًا ويلطم خديه ويمزق ثيابه ويصرخ فينا: «كتاب الله ضاع منى يا أولاد الكلب.. ضاع منى كتاب الله يا هوه..»، هدأنا من روعه ليحكى مايحدث. لقد أغوته امرأة كانت تشترى «وضحكت»

عليه وأخذته معها إلى بيتها.. «امرأة إنما إيه!».. وأخذ يصفها وصف الشبق المذهول الذى عصفت به التجربة، وينتقل من الرمان إلى العجين الخمران إلى قعر الفنجان، وهو يقطع السرد بالبكاء ولطم الخدين وصراخه الملتاع.. «ضاع منى كتاب الله ياهوه.. كتاب الله ضاع منى يا أولاد الكلب» وهم يكادون يغمى عليهم من الضحك..

ينتهى أبى من قص الحكاية، وبعد صخب الضحك، يعقب تعقيبه الدائم: أصل العلم كالزرع، كلاهما لا ينبت ولا يزهر إلا فى الأرض الصالحة.. فأحس أن بذور العلم وجذوره مختزنة فى قلعة الدولاب الغائر فى الجدار منتظرة أرضها، وأقول لنفسى: والله لأحفظن ما به كلمة كلمة ثم لا أسمح بضياعه أبدًا.. كنت أسمع من أمى ومن حكايات أبى نِتفًا وشظايا من السيرة الذاتية لفرع العائلة ووصفهما لنا باعتبارنا «بيت علم»، أما الفروع الأخرى فهى أهل المغالبة على الدنيا والصراع حول الميراث والأهواء المنفلتة والقلوب القاسية التى لا تنبت فيها إلا الأحقاد والنوايا الشريرة. أما نحن، بيت العلم، ففى الكتب والمخطوطات سيرة عطرة لعلماء ومشايخ وأزهريين، كان أحدهم زميلاً وصديقًا للشيخ محمد عبده، وكان منهم من أخرج القرية للتظاهر فى ثورة ١٩١٩، حين كان أبى فى الثانية عشرة من عمره، وكان أبى يلجأ إلى الدولاب كلما اختلف مع أصدقائه وزواره حول وقائع التاريخ أو تحديد وفاة الخلفاء أو أماكن

الغزوات والمعارك أو أنصبة المواريث أو نصاب الزكاة ومقدارها فى المال والزرع والحيوانات، صائحًا بحسم: «الكتاب أهه». فأسمع صرير باب الدولاب وصلصلة مفاتيحه، وكانت المسامرات والمناقشات تتطاير فيها قضايا الشريعة وتفسير القرآن، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول والقضاء والقدر وحرية الإرادة بين الجبر والاختيار وتفاصيل الأهوال من عذاب القبر فى دركات الجحيم إلى ما أعد للمتقين من جنات ونزل نعيم مقيم، وتنطلق أسماء الفقهاء والمذاهب ومسارات الفتنة الكبرى ويهيمن الولاء للجمعية الشرعية ومؤسسها وزوار القرية من مشايخها الخطباء والوعاظ فى المناسبات الدينية والاجتماعية المختلفة، كما يهيمن نفوذ كتاب «الدين الخالص» لمؤسس الجمعية «محمود خطاب السبكى» وتستمد منه أدلة النقاش وبراهين الآراء، فكأن الكون كله قد تحول إلى فراشات من الكلام الساحر المختزن فى الدولاب، تنطلق وترفرف فى كلمات الألسنة ثم ترتد إلى مكامنها فى الصفحات حين يخيم الصمت، وياله من صمت لا شبيه له، وياله من دولاب للغرائب والعجائب!! فى مواجهة الدولاب فى الحائط البحرى من غرفة أبى شباك عال لا يفتح أبدًا، تكدست فيه بنظام محكم كتب أخرى ومجلات وإضبارات من أكياس الورق المقوى تشبه حقائب المصاحف القديمة، قلت لنفسى: وهذه أيضًا كنوز ولكنها فى متناول الاختلاس والسرقة المنظمة إذا استطعت إليها فرصة

سانحة أو غفلة عارضة، والويل لك لو تركت أثرًا أو دليلاً من فوضى سطو مرتبك.. وغفل أبى عن إحكام مغالق غرفته ذات يوم، فاقتحمتها فى خفة وسرعة، وأخذت أول «رزمة» من الشباك، فتحتها فوجدت بها مجموعة من «كتاب الشهر» بها مؤلفات محمد صبيح وفتحى رضوان وأحمد حسين وغيرهم، ووجدت إضبارة محكمة تحوى عددًا من المخطوطات الغريبة: مجموعة من خطب جدى عامر للجمع والأعياد والمناسبات الدينية، نسخة مخطوطة من بردة البوصيرى، مخطوطات بقلم جد أبى «راجى عفوالجليل أحمد مطر خليل» فى الفقه والأدب والمنطق يضيف فى آخر بعضها إلى اسمه لقبًا يعود بنسبه إلى قريتنا هو «الرملاوى».. كان الورق الخشن برائحته الترِبة وخطوط وزخارف مطالع الصفحات أو فقرات النصوص التى تعد متونًا للشروح ببعض الأشكال البسيطة من التلوين باللون الأحمر، أما الشروح فباللون الأسود، وعلامات الوقف أو تقسيم الجداول فقد يزدوج بها اللونان معًا، كانت المخطوطات تمثل لى حضورًا غامقًا لسلطة دائمة لا تزول، هى سلطة السهر والعرق والذكاء وكدح العقول المتبتلة، كما تمثل لى خيط سلالة تطلق نداءها فى خشخشة الورق الخشن من أجلى، وتستنهضنى لأكون حبة مضيئة فى مسبحة تراصفها عبر الزمن، وأسرعت أرد الإضبارة إلى مكانها كما كانت، مع احتفاظى بعدد من المخطوطات، حرزًا وتميمة ورقعة

من خريطة انتمائى وهويتى التى يتسع بها العالم وتعلو القامة ويتجذر الحلم.

كان دولاب البركة، مكمن الطهارة والقداسة والقوة الخيرة، يستقطب فضولى وتأملى فى غرائب هذا الأب الغامض العجيب، ويستفز محاولاتى لفهمه وتأويل سلوكه الفظ معنا، بينما هو مع أولاد الجيران والأقرباء صاحب حكايات وألغاز كانت تصل به حد الهذر الصبيانى، وصاحب عاطفة جيَّاشة تجعله يبكى أحيانًا إذا رأى طفلاً يتيمًا أو أرملة مظلومة، وصاحب خلق لم أشهد أشد منه صرامة فى الحق وصلابة فى العدل والكرامة، ويكاد يشتعل حماسة وبهجة وهو يدفع بأى ولد أو بنت من أبناء القرية إلى دخول المدرسة فى المدن المجاورة أو حين يسمع أخبار نجاحهم، ولم أشهد عليه كذبًا أو نميمة أو الوقوع فى مذمة مهما تكن من عابر اللَّمم، وصاحب عفة وأنفة فلم أسمع فى طفولتى وصباى أنه أكل فى بيت أحد أو طالبه أحد بدين، شديد الحرص على امتلاك كل ما يحتاج من أدوات الزراعة والمكاييل والموازين وأدوات النجارة، ويقول الناس عنه أن يده مباركة لو غرس حجرًا أو حطبًا لاخضر وأثمر، ولكنه نموذج للقسوة والجهامة ومرارة اللسان وعنف الإهانة معنا فى البيت، لا أذكر أنه كان مصدر فرح أو بهجة أو أمان لأى منا، فأثقلنا جميعًا بإحساس وحشى موحش بأننا عبء لا يطاق ومصيبة أو بلوى رماه بها قدر غير رحيم، وما كان أبشع ما يصيبنى من هلع وحنق

كاره وهو يقول لى آلاف المرات قولته الرهيبة: «إننى أستحق تقطيع أصابعى إذ أرسلتك لتتعلم»، يقول ذلك وهو يحرك يده حركة الساطور على أصابع يده الأخرى، فأكره أن ولدت، وأقشعر بكراهية هذا المن المهين.. وأحاول الفهم أو التوفيق بين هذه المتناقضات المحيرة فلا أصل لشىء.

كان الدولاب يكبر معى ويتسع مداه باتساع عالمى، تعيدنى قراءاتى إلى أجوائه، وتذكرنى الكتب والمناقشات بفراشاته الساحرة التى ترفرف فى أمسيات المسامرات، ويعيدنى صمت التأمل والتفكر إلى صمته الجليل، وأمتلئ إحساسًا بأنه الحبل المتين الذى يربطنى بالأسلاف، ويستفز قواى بأسئلة الحيرة حول ما أشهد من فوضى التناقضات وحطام التكامل وانحطاط الهمم، وقد أيقنت أن الهوة الفاصلة بينى وبين أبى يستحيل عبورها فلا تواصل ولا تفاهم ولا أمل فى مد جسر يعبر فوقه أى منا إلى الآخر، حتى كانت ضربته القاصمة التى قلبت مشروع حياتى رأسًا على عقب وأطفأت الشمس فى قلبى وهدمت سماواتى بعصفها الظالم المظلم، ضربة الحكم بالإعدام على أملى فى مستقبل علمى ثقافى، واختصار مسيرتى وحياتى فى منتصف الطريق.

كنت قد سحبت استمارة وأوراق نجاحى فى «التوجيهية» وطارت بى الأحلام إلى مدرجات الجامعة وقاعات الدراسة وحياة العلم والثقافة فى

القاهرة، وانفتاح الآفاق بالأمل والحرية فى تشكيل المصير الشخصى بالموهبة والذكاء والدأب وخوض المعترك السقراطى بين الأساتذة الكبار، وقد حرص أبى على أن يأخذ استمارة النجاح وبقية الأوراق اللازمة للتقدم للجامعة وأخفاها عنى، وبدأت أسمع منه ومن الأقرباء لغطًا غامضًا حول استحالة ذهابى إلى القاهرة للدراسة بعيدًا عن رقابته الصارمة، مرة بسبب تكاليف الدراسة ومتطلباتها، ومرة بسبب الخوف من ضياعى بين الكتب والمكتبات، ومرات بسبب تمردى وفوضى تهجمى ضد ما يشيع من آراء ومواقف فى السياسة ونظام الحكم.. قال أحد أقربائى المدرسين لأبى وفى حضورى - وقد ألحق ولديه بالجامعة-: «ألا بد أن يتعلم كل الناس فى الجامعة؟! ألحقه بالدراسة التكميلية ليتخرج مدرسًا بالمدارس الابتدائية بعد عام واحد فتستريح وتضمن له عملاً. فقلت: غاضبًا: الأفضل أن تأخذنى خادمًا عند ولديك.. أيحرم الموهوب المثقف القارئ من الجامعة ويدخلها الأغبياء التافهون كأولادك؟ فاندفع أبى ليهجم علىَّ وأنا أفر قبل أن يلحق بى.

قضى الأمر ووقعت الواقعة وهوت على كيانى مطرقة كونية جعلتنى مضغة مطحونة من اللحم والدم والعظام على سندان الظلم والظلام، لا أملك إلا الأنين الموجع والدموع التى لا تنقطع، وكان أشد ما يثير حفيظتى الموتورة الكارهة أننى أسمع شائعات فى القرية حول امتلاك أبى لرصيد ضخم من المال فى

البنك أو فى توفير البريد، وكنت أقول لنفسى: هذه الأموال هى عصارة جوعى ورثاثة أحوالى وهمجية القسوة وانتهاك الآدمية التى تخبطت فى أهوالها، ولعله يكنز الألوف بعدد الرقع فى ملابسى!!

قضى الأمر وتمت الكارثة، فاشترطت بكل قواى أن أسكن فى شبين الكوم، وقضيت عامًا دراسيًا كأننى فى زنزانة المحكومين بالإعدام، ودفنت بقاياى بين الرافعى ومحمود حسن إسماعيل ومحاورات أفلاطون وكتاب نيتشه وديوانى چون كيتس وروبرت براوننج ومجموعة الذخيرة الذهبية، وما زالت بين الصفحات آثار دموعى التى استنزفت قواى وجعلتنى أتفجر بشجن المقهور وحسرة المغلوب على أمره. لقد رفت ذكرى كل ذلك فى أجواء روحى وذكرياتى الدامية وأنا أقف أمام الدولاب مكمن السحر والسر، بيدى مفاتيحه، وحولى يتحلق الورثة والشهود بعد وفاة أبى، لا أكاد أرى أو أسمع، بينما تتكشف أمامى أسرار الأب الغامض العجيب:

أخرجت مجموعة الجلاليب الكشمير والكواكيل والصدارى والشيلان المرصوصة بعناية والمطوية على حبات النفتالين و«عرق الحلاوة»، فوزعتها صدقة ورحمة، وأخرجت مجموعة من الدفاتر المرقمة والموزعة على بيانات ثلاثين عامًا كاملة، بها أدق التفاصيل لكل موسم زراعى، المزروع وما تكلف، والناتج وما أفاء من دخل، من أدنى ثمن حزمة الحطب أو حمل التبن إلى مكاييل الذرة والقمح

ومـوازين القطن وأثمـانهـا، إلى تقـدير اللبن والجبن والزبد.. فى حسابات دقيقة لمدة ثلاثين عامًا متوالية، يستطيع الدارس أن يستخرج منها خطوطًا بيانية للوضع الاقتصادى وتطوراته ومعدلات النمو فى المحاصيل الزراعية فى القرية خلال هذه الأعوام الثلاثين، ودفاتر أخرى لتفاصيل المصروفات وما له وما عليه، وملخصات لجميع القضايا والحوادث والخلافات العائلية فى القرية فى نفس المدة.. إلخ.. إلخ.. فى نظام دقيق ومنطق إحصائى مستوعب.

كنت أعرف أنه يعشق النظام والنظافة إلى حد الهوس، ولكنى لم أتخيل أن يصل به هذا العشق إلى هذا الحد والمستوى المثير للدهشة، فالمسألة كلها - فى نظرى - لم تكن تستحق.. و«عد غنماتك يا جحا..» وعجبت لهذا الجهد المرهق المنتظم مع أن كل ما يمتلك كان فدانين من الأرض!!.

ثم فوجئت بدفتر من دفاتر التوفير فى البريد، غلفه بورق لامع نظيف.. هززته بيدى بعنف، وفوجئ الورثة والشهود المتحلقون حولى وأنا أصيح بصوت غاضب متهدج: إياك أن تخذلنى بعد هذا العمر.. إياك أن تضرم نار الغضب وأهوال المحاكمة وبشاعة إدانة أب ميت لا يملك فرصة رد أو دفاع.. أيها الدفتر الكريه الممقوت.. أنقذنى من نفسى واترك لى فرصة غفران ومصالحة.. وامتلأت عيناى بالدموع وألقيت بالفتر على الأرض وقلت: هذا هو دفتر التوفير الذى دارت حوله إشاعات القرية، فإن وجدتم

به مالا فإننى أعلن براءتى من هذا المال وأرفض أى قرش منه.. خذوه وقسموه بينكم، وأتمنى ألا يكون به أى رصيد حتى أحتفظ بصفاء حزنى وجلال انتمائى.. كان الورثة ينتفضون بالبكاء والإشفاق علىّ، مع لهفة مكتومة لاكتشاف الكنز المخبوء، وقلب أحد الشهود أوراق الدفتر بهدوء ودقة، وصاح مندهشًا:

«الرصيد صفر.. فلماذا إذًا وضع نفسه فى مهب القيل والقال!.. حقًا.. تحسبهم أغنياء من التعفف» ارتفع اللغط بين الورثة والشهود، وطيف أبى يخرج من ظلمات قلبى وقد جللته نباله شهيد وعظمة شرف مكتوم وكبرياء متوحد، فقد انقشعت بلبلة سوء التفاهم والفهم عن التباسات علاقتى التعسة به.. أجل.. لقد كان أعلى مبلغ وصله الرصيد فى الدفتر أقل من ثمن زوج من الأحذية.. يتناقض بما يسحبه تدريجيًا حتى يبلغ الصفر، ثم يعيد وضع نفس المبلغ التافه ليسحبه من جديدة، وهكذا، والقروش التى كان يسحبها كل مرة هى بالضبط أجرة السفر إلى المدن القريبة أو البعيدة كلما اشتبك فى قضية أو تحقيق شكوى أو جلسة محكمة ضمن مهامه فى الوقوف ضد المظالم والدفاع عن نفسه وعن المصالح العامة للقرية، وبيان ذلك مسطور فى أحد دفاتره.. إنه ملمح آخر يضىء مكابدته المضنية للحفاظ على الكرامة وكبرياء الاستغناء والحرية من عبودية الاحتياج المفاجئ لما لا يمكن تأجيله.

أحسست أنه كان أكبر منى ومن تفهمى بما لا يقاس، وأننى حبة رمل على قدمى جبل، فاختنقت بالبكاء وأنا أقول فى حسرة من الحيرة والندم الغاضب: يا سيدى.. أما كان للفهم والتفاهم بيننا من سبيل؟!

ويا أيها الشهيد النبيل لِمَ لَمْ تؤاخنى بقليل من مودة التكاشف حتى أنصفك من نفسى وأشرح من طواياى مالم تكن تعرف؟! أما؟!

أما المفاجأة التى أضاءت مساحة أخرى من مجهولات الأب الغامض العجيب فقد كانت كشكولاً مغلفًا بغلاف بنى سميك، كتب فى أولى صفحاته عنوان كبير هو: «مذكرات اليتيم».. يا ألطاف الله!! أكان هذا الطود المجبول من صوان الإرادة وجهامة القسوة وفوران العنف مطويًا على ينبوع من الهشاشة والدفع ورعب المنفى الوحيد بين وحوش الأهل!! أكان ما يزيد على نصف القرن وهوهة فزع فى أحراش القرابة الموحشة!! قل يا سيدى اسمع: وحيد هو بلا أخ أو أخت، مات أبوه فى صباه فلا يتذكر منه إلا بقايا صور وأخيلة، وأمه «عيوشة شاهين مرعى» من قرية بعيدة هى «سدود - مركز منوف»، وإذًا فلا أخوال ولا خالات بالقرب منه يسبغون عليه من المحبة والحماية وشكيمة «العزوة» ما يشعره بالأمن، والأعمام البعيدون - فأبوه كان وحيدًا كذلك - وأبناء الأعمام يتربصون به منذ وعى.. فلو أنه مات أو قتل لآل إليهم

ميراثه من الأرض، وهو يردد: «الأب رب، والعم غم، والجنة تحت أقدام الأمهات» ويتذكر من صباه البعيد صورة مرعبة من الخوف والتوجس والحذر، صورة أمه وهى تربط يدها بيده عند النوم، وتربط يده إلى يدها بحبل طويل وهو يلعب بين الصبيان وتلاحقه فلا يغيب عن عينيها أبدًا، خوفًا من قتله أو دس السم له فى طعام أو شراب.. هو يكبر فى ظل هذا الفزع الدائم، والأعمام وأبناؤهم لا يكفون عن إيذائه وتهديده بالقتل، ولا يمر يوم بغير الاعتداء على أمه بالضرب أو اغتصاب الزرع أو إتلاف المحاصيل، حتى كسر أحدهم ساقها فظلت فى الجبائر والأربطة زمنًا طويلاً، وأمه لا تستعين بأهلها ولا تستعديهم من أجل ابنها اليتيم، كما أنها لا تقبل الفرار به إليهم: وهم «أهل شهامة وكرامة» وتقول له دائمًا: «حينما تصبح عالمًا وشيخًا مثل أبيك فسوف يصبحون أطوع لك من ركوبتك».. كانت أمة قوية الشخصية ذات جرأة ومهابة فى مواجهة همجية العدوان، وتطلق فى وجوههم نبوءاتها المسجوعة المنغمة: «محمد على سيلف له السيجارة، ومحمد الشمندى سيسحب له الحمارة، وكلكم وراءه ومن مخزنه يكيل الأغنيا والفقارة».

حفظ القرآن فأركبته أمه جملاً مزينًا بسجادة وجريد النخل، وألبسته عباءة أبيه وعمامته، ودارت وهى تسحب الجمل به فى شوارع القرية ودروبها وهى ترقص وتزغرد وتطلق نبوءاتها، وملأت جيبه بالنقود

ليتصدق، وتتوقف بالجمل أمام أبواب أعمامه وأبنائهم وتدور حول الجمل راقصة مزغردة.

«العفيفى ختم القرآن.. وأبوه فى الجنة فرحان».. ثم أولمت وليمة كبيرة أمرته أن يقوم فيها على الخدمة وألا يصب الماء على أيدى الطاعمين أحد سواه، ومنعت أن يناديه أحد - وهى أول الجميع - إلا بلقب الشيخ.

أرسلته إلى الأزهر فتمزقت نفسه بين الدراسة وبين ما تعانيه أمه من أهوال الأقرباء، وزوّجته إحدى قريباتها فأضُيفت إلى أمه وحياته أعباء جديدة اضطرته إلى ترك الأزهر وهو «فى غم وكرب عظيمين» وتوفيت أمه وطلق زوجته ومعها ابنه الأول، وفى وحشة الوحدة واليتم الفاجع بدأت مسيرة الإرادة الجبارة فى تحقيق نبوءات أمه واحدة واحدة..

كانت عيناى تتخطفان سطور «مذكرات اليتيم» وأنا أقف أمام الدولاب، حتى خذلتنى قواى وأغرقت فى بكاء أصبح ذا معنى وأفق جديدين، والهمهمة النادمة الغاضبة بين الدموع تثير حيرة وإشفاق الورثة والشهود.. لم أحتمل إحساسى بأن موته كان نبالة شهيد لم يعرفه أحد، وأطبقت علىَّ رغبة لا تدفع، فتركت القرية بعد تمام المراسيم، وتركت البلاد كلها.. لعلى أولد من عصف استشهاده الرمزى الغنى بالدلالات والقيم.. أنا اليتيم الضائع بين أيتام الأمة الباحثين عن أبوة جماعية ترد عنهم يتم الهزائم والضياع بين الأمم..

٣٧ - إحراق واحتراق

لم يكن المراهق الريفى يعلم، وهو يخطو إلى مطالع شبابه الفقير القلق متهوسًا بالشعر ومعمار الكلام الجميل، وتأخذ بلبه الأخيلة الأسطورية فى إلياذة هوميروس وشاهنامة الفردوسى، وتأخذ بمجامع قلبه موسيقى التراكيب اللغوية فى شعر محمود حسن إسماعيل ونثر مصطفى صادق الرافعى وتعيد ترتيب وتنظيم المدركات والأهوال والطموحات على سلم أنغام كونية تنتسب إليها وتتقوم بها قراءاته العشوائية وأحلامه التى تتجذر شيئًا فشيئًا فى جمر الفطام عن مناهج المدرسة، وبانضمام شاعر مفكر مناضل هو محمد إقبال، فلا يسعه عالمه الضيق ولا تسعفه إمكانات محيطه البائس، فيتجول طوال النهار على شطوط الترع وبين الغيطان، صارخًا بما يحفظ من شعر، قارئًا منغمًا متهجدًا بما يقع بين يديه من سطور، لم يكن يعلم هذا المراهق الريفى أن لحظة من

لحظات الزلزال الروحى قد ألقت بين يديه بكتاب قديم مهلهل سوف يعصف به ويفتح أمامه باب الفطام عن كل ما قرأ ووعى، ويرمى بين جوانحه بجمرة متوقدة يصدق عليها قول صاحبها: «إحراق واحتراق.. تلك كانت حياتى».. كان الكتاب هو «نيتشه» لمؤلفه ـ وأستاذى فيما بعد ـ عبد الرحمن بدوى.

يزأر الفتى الريفى زئير الأسد الجريح ويعوى عواء الذئب:

«أجل! إنى لأعلم من أنا ومن أين نشأت:

أنا كاللهيب النهم،

أحترق وآكل نفسى.

نور كل ما أمسكه،

ورماد كل ما أتركه،

أجل! إنى لهيب حقًا.»

ثم يأخذه الوجد وينفجر بالدمع والطموحات المجهولة وهو يردد النشيد الكونى مسحورًا فى سطوره من إشارات غامضة لدقات ساعة الحياة:

الدقة الأولى

أيها الإنسان انتبه!

الثانية

ماذا يقول منتصف الليل العميق؟

الثالثة

لقد نمت، لقد نمت،

الرابعة

وهأنذا أستيقظ من حلم عميق

الخامسة

إن العالم لعميق،

السادسة

وإنه لأعمق مما ظن النهار.

السابعة

فى ألمه.

الثامنة

وسروره ـ أشد عمقًا من ألمه:

التاسعة

فالألم يقول: افن وغادر الحياة!

بينما كل سرور يريد الخلود ـ العاشرة

الحادية عشرة

ـ يريد الخلود، «الخلود العميق».

الثانية عشرة

...!

كانت حياة نيتشه وتجربته الروحية والفكرية، بكل آلامها واحتراقاتها، فى خضم عصره، وبلاده، وكانت

كلمات إرادة القوة ونبالة الدم والعود الأبدى وأخلاق السادة والعبيد والتبشير بالإنسان الأعلى ومفاهيم الموسيقى والتراچيديا وتحطيم الأصنام والجنون..إلخ كانت كلها تدوم وتشتعل وتعصف بالفتى الريفى المهلهل الرث عصفًا غامضًا وتطوح به فى المساحة الرمادية بين الوضوح المضىء والغموض المعتم، وحينما تسلم كتب المناهج الدراسية فى الفلسفة والمنطق وعلم النفس، من تأليف الأساتذة الكبار: إبراهيم بيومى مدكور ويوسف كرم وأبو العلا عفيفى وأحمد فؤاد الأهوانى، أحس أنه قد كبر عشرات السنين، وبدأ يعرف الخطوات الأولى على طريق لا نهاية له، وأحس أنه مطالب بتطبيق الدرس الأعمق فى حياة الفلاحين: البدء من نقطة الصفر، وإنه لا ثمرة بغير أوان، ولا معرفة لكتاب إلا «من الجلدة للجلدة».

كان الطبيعيون الأوائل قد شكلوا رعيل الشعراء الفلاسفة العلماء، منذ طاليس وحتى بزوغ الشمس الإغريقية الجبارة بين الشوارع والمسارح ومجالس التمثيل الشعبى وبيوت الأصدقاء باسم «سقراط» العظيم، ومن حوله الطابور الخامس الأسبرطى من السوفسطائيين الهدامين العدميين، وهم جميعًا يخلقون ندوة هائلة شاملة، ومجمع حوار وجدل ومماحكة، ليعرف الفتى الريفى فى طوفان الإشكاليات الصعبة حول وحدة وواحدية المبدأ الطبيعى الأول، وحل إشكاليات التعدد والكثرة وثبات

الوجود وحركة الموجودات وتغيرها، ويقف مبهورًا أمام هيراقليطس ونارة الكونية ونهره الذى لا يكون هو هو أبداً فى لحظتين ولا ينزله المرء مرتين، ودورة العود الأبدى والاحتراق الكونى والتكرار الحتمى للوجود والعدم والكون والفساد فيما يسميه «السنة الكبرى»، ثم ينتقل إلى المنزع الصوفى والفكر الرياضى الموسيقى وفكرة التطهير والتناسخ والتقوى الفلسفية عند فيثاغورث، وكلما قطع خطوة فى الدراسة انفتحت أمامه أبواب مضيئة بالجدل العقلى، حتى تسطع شمس سقراط بمنهجه التوليدى ونظرياته فى التعريف واستخلاص الحقائق من أفواه الخصوم ووقوفه الفذ أمام الهجمة السوفسطائية، ويصل الفتى الريفى إلى حال من الفزع الغاضب إذ يرى قداسة النبل والحكمة فى مواجهة الغوغائية التى أحكمت السوفسطائية نسج شباكها فى تآمر وتواطؤ انتهيا به إلى مأساة تاريخية مرعبة.

واصل الفتى الريفى دراسة الكتاب الرائع «دروس فى تاريخ الفلسفة» وألم بالخطوط الكبرى والمدارس والمذاهب التى تكوّن الهيكل العظمى لتاريخ الفلسفة الإغريقية والعصور الوسطى وعصر النهضة حتى بزوغ الفلسفة الحديثة على يد ديكارت وبيكون وكانط، مع إلمامة معمقة بتاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ودور المتكلمين من معتزلة وأشاعرة وتصوف إسلامى، ومن دور المشّائين والفلاسفة من الفارابى

وابن سينا وإخوان الصفا، وعلاقة الفكر الإسلامى وتأثيراته الكبرى على الفكر اليهودى والمسيحى.

كان هذا الكتاب وطنًا آخر يدخل فى نسيج الوطن الشعرى ليتحدد حلم ومصير الشاعر الناشئ، وتدخل فى لغة الفهم والفكر كلمات العناصر والكيمياء والتحولات والعود الأبدى والسنة الكبرى والوصل التكوينى بالحب والفصل العدمى بالكراهية.. إلخ، ويتأطر الوجود كله، بشعره وفلسفته، فى دائرة حلم واحد، هو أن يدرس الفتى الريفى الفقير الفلسفة فى الجامعة، ولكن الاختصار المميت للخطى وتجربة الخصاء العلمى الدامية بالانقطاع الإجبارى عن الدراسة المنهجية المنظمة والمنتظمة، للعمل فى أكثر المهن مشقة وتعاسة وقتئذ، مدرسًا بالمدارس الابتدائية فى برارى ومستنقعات وقرى وكفور وعزب محافظة نائية تنقطع عن العالم حينما تهطل حفنة من المطر، وقد احتبس الشاب المشتعل فى غرف وعشش وجحور رطبة معتمة، لا يذكر فى قلب الفاقة غير هوسه بالشعر والفلسفة، ولا يذكر كم مرة قرأ أخطر الكتب على حياته الروحية والعقلية، كتاب الحوارات الأربعة لأفلاطون التى اختارها وترجمها زكى نجيب محمود، وهى الحوارات التى تستعرض حياة سقراط ومحاكمته ودفاعه الفذ ونهايته المأساوية، وكم مرة انتشى بالذكاء والسخرية وادعاء الجهل وتوليد الأفكار وإفحام الخصوم وإرباكهم، وكم مرة زلزل كيانه

لمشاهدة القوة الأخلاقية والشجاعة النبيلة فى مواجهة الغوغاء والقضاة والطغمة المتآمرة!

بإرادة وعزم متوقدين كان الشاب الريفى يعود إلى متابعة الدراسة ليلتحق بقسم الفلسفة فى آداب عين شمس، ليرى ويسمع عبد الرحمن بدوى وعبدالهادى أبو ريدة ويوسف مراد ومصطفى زيور وفؤاد زكريا وأحمد أبو زيد وحسن شحاتة سعفان وآخرين كثيرين من جامعات مصر المختلفة، بلحمهم ودمهم وحضورهم الباهر العذب، فانفتح الباب واسعًا على الفكر الفلسفى، مذاهب ومدارس وتيارات ومفكرين، من أقدم آثار الحكمة الشرقية واليونانية حتى المعاصرين الأحياء فى أرجاء العالم، فى تلاطم العقول وصدام الثقافات وتلاحقها وانتقالات الأسئلة الكبرى الخالدة بين أمواج الإجابات المؤقتة المتحولة عبر التاريخ، والريفى العاشق لا ينسى لحظة واحدة أنه قد نذر نفسه للشعر ولشغفه الحماسى المهيمن بالفلسفة، يجتزئ من الدنيا بلقمة خشنة فقيرة وملبس بلا وسامة، وإيمان لا يتزعزع بالميراث السقراطى وهدير الأعماق بالشعر.

٣٨ - العشاء الأخير

ليلة عجيبة من ليالى الروح والذاكرة، فاصلة هى بين زمنين ووجودين، وفاتحة هى لأبواب موصدة على قلق حى وبشرى متوترة وسؤال مفتوح، تسلطت علىَّ فيها أجواء اضطراب وإشراق صوفى يبرق بالشجن وحس الانعتاق وفداحة الحرية، ولست أدرى لِمَ تكثفت فى رمزين يتجادلان ويستضىء كل منهما بالآخر، فقد تذكرت ليلة العشاء الأخير فى لوحة ليوناردو دافنشى وتذكرت لحظة هجرة المستضعفين من مكة إلى المدينة.

إننى لم أعشق مكانًا فى الأرض مثلما عشقت قريتى، كما لم أكره البقاء فى مكان مثلما كرهت البقاء فيها، هى حجر الأم الحاضنة وهى فى الأسر، يختنق بحنانها الوليد الأسير فلا حلم له إلا بالقرار والخلاص من مدى أحضانها المحدد بمدى الزنزانة الموحشة.. وإن سنة أخرى من البقاء فيها لكفيلة بقتلى أو انتحارى.

انتهيت من سنة الدراسة التكميلية فى شبين الكوم، وقضيت الصيف فى حال من الرعب والفزع خشية أن يتم تعيينى مدرسًا فى قريتى فأواصل التخبط فى كابوس الأهل لأنتهى كما انتهى غيرى من مدرسى القرية إلى مصير أشبه - عندى - بالموت، هو الغرق فى توافه الهموم اليومية وزهو التمايل بالبيجامات ذات الأكمام القصيرة والجريدة المطوية فى اليد والجلوس أمام الدكاكين بغير حديث ممكن إلا فى العلاوات أو هواجس ونكات الجنس الفجة أو التنطع الدينى المفتقد للروح ووقدة الضمير ويقظة النفس أو مهارشات التفاخر بالخواء والتفاهة، ثم الوقوع فى ضرورة الزواج المبكر بلا دافع حقيقى من حب أو تراحم، فأعتل مثلما يعتلون أحمالاً من بلادة الحس وجهامة الغياب وفجاجة الحضور الغليظ.

لقد كنت أعرف وأومن بأن الشعر سينقذ إنسانيتى من هذا المصير، ويفتح أمامى مسالك الرؤية والوعى من هذا الموت الذى بت أخشاه وأحلم بالفرار من عنكبوتيته المرعبة، ولكننى كنت أرى أن بقائى بقريتى سيجعل الخلاص صعبًا أو مستحيلاً، وهكذا قضيت الصيف ضيق النفس بكل شىء، لا أكاد أقوى على قراءة أو كتابة، أقضى النهار ومعظم الليل متجولاً وحدى بين الحقول مستغرقًا فى كآبة الهواجس وأحلام اليقظة التى أنسجها وأنقضها بلا كلل، أزفر بالخوف والغضب المكتوم ضد مجاهيل الأحداث والمسارات: هيه يا عم محمد.. هأنت تبلغ عامك

الحادى والعشرين فى عاصف من التمرد العاجز والغضب والمصاولة بلا طائل.. فهل ستقضى بقية العمر هنا عاجزًا حتى عن الغضب والتمرد!! هل ستخبو نارك أنت أيضًا لتئول إلى رماد من الذكريات المنطفئة والحسرة المغروسة فى الضلوع؟! وأنتبه إلى جسدى وهو ينتفض ويتصبب عرقًا وخطاى تسرع حتى أكاد أجرى لاهثًا، ثم أغرق من جديد فى نسج المخاوف والهواجس والأحلام.

كانت نفسى تقشعر هلعًا وامتعاضًا من محاولات أبى للتقرب منى ومد جسور المودة والمصالحة بيننا.. فبعد قليل سأكون مرجوًا لمنفعة أو أداء واجب أو رد دين، فكنت أنفر وأرفض الاستجابة للمودة المفاجئة أو الخضوع لرهافة الضعف أمام فرحه واهتمامه بى، وأرقب وجه أمى تتعاوره الأحوال المتناقضة من فرح بقرب خلاصى مما أنا فيه، وإشفاق علىَّ من كآبة الصمت والتماع الدموع فى عينى، والحزن والخوف من سفرى بعيدًا بلا رعاية أو أُنس، ولا ينقذنى من فوضى المشاعر المتضاربة إلا الهرب إلى التجوال بين الحقول.

حين وصل خطاب التعيين فى مديرية الفؤادية ـ الاسم السابق لمحافظة كفر الشيخ قبل نظام الإدارة المحلية ـ قال أبى: سأكتب شكوى وتظلمًا، وأبحث عن واسطة تغير التعيين إلى المنوفية، ولكنه بهت حين قلت: لا.. دعنى أبدأ حياتى كما أشاء.. فى بلاد

أخرى وبين بشر آخرين.. فأنا لا أطيق البقاء هنا ولو يومًا واحدًا.. فسكت وهو يتنحنح بطريقته الخاصة حين يكظم الغيظ.

فى الليلة العجيبة التى تسبق السفر تحلق الجميع للعشاء معى قبل رحيلى، فانفجر الرمزان الجليلان فى الذاكرة، لوحة العشاء الأخير ولحظة الهجرة أنظر إلى العائلة وأتذكر قول المسيح عن الخبز والشراب وقد أصبحا جسده ودمه الرمزيين اللذين يحل بهما فى أجساد وقلوب وأرواح حوارييه لينطلقوا بالبشرى وتحرير الإنسانية من أعتى وأحط أفكار أى شعب عن نفسه، فكرة شعب الله المختار، وتحرير البشرية من دموية احتكار الرب، ورفع إصر التعصب العرقى الدموى المقيت، وهدم إمبراطوريات القهر والاستعباد بالكلمة والمحبة، وأقول لنفسى: لعلها بشرى خير أن أتذكر لوحة ليوناردو دافينشى، ولعلى أحمل من إرث الأبوين - على الرغم من كل شىء - أفضل ما فيه من كرامة الحق والعدل والخلق الرفيع والصبر وخوض تجربة الحياة نقى السريرة نظيف اليد. أما هجرة المستضعفين فإنها ترفدنى بمعنى الفرج بعد الضيق والحرية بعد الأسر وانطلاق الفكرة والقيمة وصفاء العقيدة الشاملة إلى الدنيا وكأنها أصبحت ذات أقدام وأجنحة.

وفى صبيحة اليوم السابع من أكتوبر ١٩٥٦ كنت أقف على رصيف محطة القرية، وأدور برأسى فى

الجهات الأربع، تغيم عيناى بالذكريات، وتتحسس يداى السلة الكبيرة التى أحمل فيها لحافًا وقليلاً من الملابس وبضعة أرغفة تحت عدد من الكتب: نسخة من القرآن، الكتاب المقدس، وحى القلم للرافعى، أين المفر لمحمود حسن إسماعيل، ألف ليلة وليلة المترجمة إلى الإنجليزية بعنوان «الليالى العربية»، محاورات أفلاطون، الذخيرة الذهبية، مختار الصحاح، قاموس ميشيل ويست.

هى لحظة فاصلة بين زمنين ووجودين، أتأمل القرية وأنا أخرج كما تتدفع النافورة، وأنحدر بعيدًا عنها كالسيل الباحث عن أفق، وأنتشر من سياجاتها كما تنتشر العصافير والصقور العالية جوابة الأجواء بهدوئها الواثق، يملؤنى حس البشارة بالعزم المتفائل واليقين المطمئن، ويملؤنى حس الهجرة المتقشفة بنبل الوجد وصراحة الانفعال الطليق وفعل الحرية، وكأننى فكرة تقفز من الكتب حية تسعى، ونداء أسلاف لا أملك أمامه إلا طاعة العاشق، وتسكع النفس المبتلة بالندى خلال مسافات مهجورة، تلوح بممكناتها من خضرة وبشر يكادون يرفعون الأيدى بالمعاول ويطلقون الحناجر بالنشيد.

رملة الأنجب ١٩٩٦

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org

E - mail : info @egyptianbook.org

يخلع الصبى جلبابه الوحيد، المتهرئ، ويلقيه فى النار، ويبقى عاريًا ليجبر أباه على شراء جلباب جديد له.

هكذا هداه تفكيره الطفولى. وكأن الأمر لايعدو إستبدال جلباب بجلباب، وكأنه ليس هناك شبكة كبيرة منصوبة طوال الوقت ليقع فى أسرها فقراء مصر كلهم، فى النصف الأول من القرن العشرين.

أوائل زيارات الدهشة كتبه «محمد عفيفى مطر» بكل حواسه الخمس، وبذاكرة تحوى أكثر من نصف قرن من المشاهدات والمشاركات والرؤى. شهادة على عصر شديد الثراء وسيرة ذاتية لشاعر من أكبر صناع الحداثة فى الشعرية الجديدة.

٥٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب